عوائد العرب

بقلم الطيب الأثر

المرحوم الخوري بولس سيور البولسي

ثمرت تباعاً في مجلة المسرة

بمطبعة القديس بولس في حريصا (لبنان)

نقدّم الى قراء المسرة هذه الصفحات من تأليف الطيب الاثر المرحوم الخوري بولس سيور البوّلسي . وهي دروس اخلاقية وكتابية نفيسة، حوَت في تضاعيف سطورها ايضاحات دقيقة وفوائد جمة في عوائد العرب ووجوه التشابه التي بينها وبين عوائد الشعب الاسرائيلي قديماً . فجاءت والحالة هذه دليلاً اميناً نادر المثال، قد لا يستغني عنه كل من اكبَّ على مطالعة الكتب المقدسة او احبَّ الاطلاع على اخلاق وعوائد فريق من ابناء البلاد السورية

وكان مؤلفها رحمه الله قد جمعها اثناء تجوّلاته الكثيرة في بلاد حوران وشرقي الاردن لاجل عمل الرسالة . فاخذ في نشرها منذ السنة الثانية للمسرة اي سنة ١٩١٢ . فراقت القرّاء واستلفتت انظار محبي الدروس الكتابية . وبقي نشرها متواصلاً حتى سنة ١٩٢٦ وهي الثانية عشرة للمسرة اي بعد وفاة مؤلفها بخمس سنوات، فجاءت والحالة هذه مبعثرة في سنين متعدّدة من المسرة فصعب على القرّاء ان يجمعوا شتاتها ويجنوا فوائدها . فرأينا من ثمَّ ان نعيد طبعها على حدة ونقدّمها هدية للقراء باسم المسرة مجلتهم، ونحن على يقين من انهم يقدّرون هذه الهدية قدرها، ويستمطرون غيوث الرحمة الالهية على واضعها المثلّث الرحمة

مقدمة

قد تقدم لنا في السنة الثانية من مجلة المسرة كلام مسهب في حوران من حيث اقسامها الجغرافية وسكانها المختلفون الجنس والنحلة ومزروعاتها وتجارتها ثم اطنبنا في ذكر طائفتنا الرومية الملكية هناك بما لا مزيد عليه وقد اتينا بلمحة من تاريخ هذه البلاد المدني فالكنسي . وكان عنوان مقالتنا : «بحث جغرافي تاريخي اخلاقي كتابي» . فبقي علينا اذًا ان نفي بوعدنا ونأتي بالجزء الثاني وهو المبحث الاخلاقي الكتابي فنورد لقرائنا الكرام اهم ما يتميز من اخلاق هولاء القوم سكان البادية، وقد حافظوا الى اليوم على تلك العوائد العريقة في القدم التي كنا عليها نحن اهل الحضر او على الكثير منها الى عهد قريب حتى ابدلناها بما اقتبسناه من الافرنج من حسن او قبيح

ولما كانت هذه العوائد القديمة هي نفسها التي قد جرى عليها الشعب الاسرائيلي في العهد القديم وابتداء الجديد اصبح الوقوف عليها من اكبر الوسائل لايضاح الكتاب المقدس وادراك كثير من معانيه التي تغمض على من يجهلها . وفضلًا عن

هذه الفوائد الجزيلة لا يخلو الاطلاع على هذه العوائد والاخلاق البدوية من لذة ونكتة وفكاهة . واننا نعيد هنا ما تقدم في المقالة الاولى اننا لا نأتي الا بما قد استثبتناه بانفسنا اثناء تجولنا غير مرة في بلاد حوران والبلقاء وغور الشريعة (الاردن) وانحاء فلسطين . وبازاء كلٍ من هذه العوائد والآداب العربية نذكر ماجاء من مثلها في كتاب الله الكريم من العهدين القديم والجديد، فتتم بذلك الفائدة المطلوبة

الفصل الاول

في الطعام

١ ضيافة العرب

قد اشتهر العرب بالضيافة ومنهم من جاوزوا بها حدود الكرم المألوف الى درجة الاسراف الزائد فان حكاياتهم في ذلك لا تستوفيها المجلدات الكبيرة . وكفى بذكر حاتم الطائي وكعب بن مامة ومعن بن زائدة دلالةً على منزلة الضيافة والكرم عندهم . على اننا نذكر هنا على سبيل الفكاهة ما جاء من ذلك عن الهيثم ابن عدي انه قال :

« تمارى ثلاثة نفرٍ في الاجواد فقال احدهم اسخى الناس في عصرنا هذا عبدالله ابن جعفر فقال الاخر اسخى الناس قيس بن سعيد بن عبادة فقال الاخر بل اسخي الناس اليوم عرابة الاوسيّ فتنازعوا بفناء الكعبة فقال لهم رجلٌ لقد افرطتم في الكلام فليمضِ كل واحدٍ منكم الى صاحبه يسأله حتى ننظر بمَ يعود فنحكم على العيان . فقام صاحب ابن جعفر فوافاه وقد وضع رجله في ركاب راحلته يريد ضيعةً له فقال الرجل يا ابن عمّ رسول الله ابن سبيل ومنقطَعٌ به . فاخرج رجله وقال له ضع رجلك واستوِ على الناقة وخذ ما في الحقيبة وكان فيها مطارف خزّ واربعة آلاف دينار . واوصاه ان يحتفظ بسيف كان ايضاً فيها فانه سيف علي بن ابي طالب . ومضى صاحب قيس فوجده نائماً فقالت له جارية لقيس ما حاجتك فقال ابن

سبيل ومنقطع به . فقالت له الجارية حاجتك اهون من ايقاظه هذا كيس فيه سبعمائة دينار، ما في دار قيس اليوم غيرها . وامضِ الى معاطن الابل فخذ راحلةً من رواحله وما يصلحها وعبداً وامضِ لشأنك . قيل ان قيساً لما انتبه اخبرته الجارية بما صنعت فاعتقها . ولو لم تعلم ان ذلك يرضيه لما جسرت ان تفعله، فخلق خدم الرجل مقتبسٌ من خلقهِ . ومضى صاحب عرابة فوجده قد خرج من منزله يريد الصلاة ومعه عبدان يقودانه فانه كان كفيف البصر . فقال لهُ الرجل يا عرابة ابن سبيلٍ ومنقطع به . فرفع عرابة يديه عن العبدين وصفق بيمناه على اليسرى وقال : اواه اواه والله ما اصبح عند عرابة شيء ولا تركت له الحقوق مالاً . ولكن خُذ هذين العبدين . فقال الرجل والله ما كنت بالذي يسلبك عبديك . فقال ان اخذتهما والا فهما حرّان . فان شئت فخذ وان شئت فاعتق . وخلاهما وعاد الى منزله ملتمساً طريقه من الجدران كعادة العميان . فاخذهما الرجل ومضى . ثم اجتمعوا وذكر كل واحد منهم قصته فحكموا اجماعاً لعرابة لانه اعطى على جهد ولقد انصفوا فيما حكموا

اما اليوم فقد فترت نوعاً اريحية الكرم عند خلفائهم من اهل الحضر . بيد ان الضيافة لم تزل عندهم على جانب من الاعتبار فلا تخلو قرية من قرى حوران من مضافة وهي المنزل المعدّ لضيافة كل من يحل في القرية . فتكون عادة في دار الشيخ وهي المضافة الرسمية . وقد يوجد غيرها في بيوت الموسرين . على ان كل بيت او خيمة اذا استضافها غريب اياً كان لا يسع اهلها الا ان يحفلوا بهِ ويكرموا مثواه ولو كانوا على جانب من العسر والفاقة

وفي بعض المضافات المطروقة لا يكاد ينقطع توارد

الضيوف اليها السنة كلها وقد يكون عددهم وافرًا في اليوم الواحد على اختلاف المواطن والملل فقد رأيت المسلم والمسيحي والدرزي والبدوي مجتمعين في مضافة واحدة . وليس بنادر ان يستمر الواحد منهم بضعة ايام آكلًا شاربًا نائمًا ودابته معلوفة محروسة . وان كان صاحب وجاهة او رتبة فيذبحون له الذبائح ويفرشون له الصوف والحرير ويقوم الجميع بخدمته كانه المولى المسلَّط . وهم مع ذلك لا يتأخرون عن الاحتفاء باحقر ضيوفهم ايضاً . وما دام عندهم فله احسن ما ياكلون واوثر ما يفرشون . ومن الضيوف من يطلبون من مضيفهم بجرية الطعام الذي يشتهونه . والغطاء الذي يحبونه مما لديهِ . وقد رأيت واحدًا منهم طلب عباءة المضيف ليتغطى بها ليلًا . ولا يغرب عن احد ما تقتضي هذه الضيافة من النفقات الطائلة فقد تبلغ عند بعضهم الالوف الكثيرة من الغروش وقد اخبرني مخبرٌ ثقة ان احد مشايخ القرى المسيحية في حوران ينفق في مضافتهِ كل سنة ما ياتي بيانه

صنف	مد	صنف	رطل
قمح	٢٢٠	ارز	١٠٠
برغل	٢٢٠	سمنة	١٥٠
ذرة	٤٠٠	زيت	٣٠

صنف	مد	صنف	رطل
كشك خميرة[١]	١٠	بصل	١٠٠
كشك لبن	٥٠	فلفل	٤
ملح	٣٠	بنّ	٣٠
نشا	٥٠	شاي	١٧
		سكر	٢٠
		دبس	٧٠
		حلاوة	٢٠
		تبغ	١٠

اما من اللحم فينفق نحو ستين خروف وجدي ومنهم من يذبح في السنة ٣٠٠ خروف . اما التبن والشعير لعلف الخيل والدواب فيخزن الشيخ منها كمية وافرة يجمعها من اهالي القرية وقد يعفى من الضرائب بل يعفي منها نفسه فيتحملها عنه بقية الضيعة عسفاً[٢]

اليك الان ايها القارئ اللبيب وصف كيفية الضيافة كما شهدتها بنفسي : يدخل الضيف راكباً الى عرصة الدار ويترجل فيبادر اليه صاحب المنزل مرحباً وياخذ بعنان فرسه ويسلمها الى

---

(١) وهو لا يدخله اللبن ويدعى عندهم المحرم ويأكلونه ايام القطاعة

(٢) خبرني آخراً احدهم ان هذه العادة اي القاء ضرائب شيخ الضيعة على عاتق الاهالي قد شرع هولاء في الغائها في عهد الدستور ولعلهم ينجحون

احد الغلمان ثم يدخل الوافد الى المضافة ويمد له بساطاً من شعر او حصيرة يضع فوقها اللباد وان كان الوافد من ذوي المكانة فيبسط له فراشين او ثلاثة فيتربع عليها الضيف متكئاً على المرافق الصوفية او الحريرية

ولا بد لك من معرفة اصول اللياقة عندهم لئلا تخلّ بواحدة منها فينكرونها عليك فيما بينهم . وهي انه يلزمك قبل ان تدخل المضافة ان تخلع نعليك في العتبة ثم تسلم على الحضور الذين يقفون لك باحتفاء ويتخلون لك عن المكان الاشرف اذا كنت من اهله وهو يكون عادةً في صدر المجلس او الاقرب الى النار اذا كان الوقت شتآء . وبعد ان يستقر بك المقام يأخذ الحضور بالتسليم عليك الواحد بعد الآخر . فتردد عليهم السلام وتتجاذب معهم اطراف الكلام بينما يهيّئ المعزّب (اي المضيف) القهوة التي هي في الضيافة بيت القصيد

٢ الضيافة عند اليهود قديماً

قد اتى الكتاب الكريم غير مرة على ذكر الضيافة ووصفها . فمن ذلك ما جاء عن ايليا النبي[١] انه استضاف بامر الرب ارملة فقيرة في صرفت من اعمال صيدون[٢] واقام عندها اياماً يشاطرها

(١) سفر الملوك الثالث ف ١٧ (٢) وهي صرفند الحالية جنوبي صيدا

القوت والمسكن على ما بها من الفاقة. فجازاها الرب عن يده خيراً بانه بارك الدقيق والزيت عندها فلم ينقصا حيناً من الدهر وهي تأخذ منهما. واسترجع النبي ابنها من الموت

ونظيره تلميذه اليشاع كان يحل ضيفاً عند امرأة في قرية تدعى شونم . وقد بنت له علية صغيرة لهذه الغاية. وهذا كلام الكتاب يبين احتفال اليهود بالضيافة

« وكان في بعض الايام ان اليشاع جاز بشونم وكان هناك امرأة عظيمة فامسكته ليأكل وكان كلما مرّ يميل الى هناك ليأكل . فقالت لبعلها قد علمت ان هذا الذي يجتاز بنا هو رجل الله وهو قديس فلنبنِ له علية صغيرة ونجعل له فيها مائدة وسريراً وكرسياً ومنارةً حتى اذا جاءنا يعدل الى هناك [1] »

فكان من مجازاة النبي لهذه المرأة على صنيعها انه نال لها من قبل الله ولداً اذ كانت عاقراً . ثم ردَّ لها ابنها هذا اذ كانت قد نشبت فيه يد المنية

وكان اذا ضافهم احد ولو كان غريباً ليس لهم به سابق معرفة انهم يقومون بخدمته احسن قيام ويكرمون مثواه كما جاء ذلك عن ابرهيم وهذه رواية الكتاب بنصها الشائق :

« ورفع ابرهيم طرفه واذا ثلاثة رجال وقوف امامه فلما رآهم بادر للقائهم من باب الخباء وسجد الى الارض وقال يا سيدي ان نلت حظوة في عينيك فلا تجز عن عبدك فيقدم لكم ماء فتغسلون ارجلكم وتتكئون

(١) سفر الملوك الرابع الفصل ١٤

تحت الشجرة واقدم لكم كسرة خبز فتسندون بها قلوبكم ثم تمضون بعد ذلك. قالوا اصنع كما قلت. فاسرع ابرهيم الى الخباء الى سارة وقال هلمي بثلاثة اصواع دقيق سميذ فاعجنيها واصنيعها مليلاء وبادر الى البقر واخذ عجلاً طيباً ودفعه الى الغلام فاسرع في اصلاحه، ثم اخذ زبداً ولبناً وعسلاً والعجل الذي اصلحه وجعل ذلك بين ايديهم وهو واقف امامهم[1].

وعلى نحو ذلك صنع لوط ابن اخيه بالملاكين اللذين وفدا اليه في صدوم بصورة بشر[2]

واذا حلّ عندهم احد من قرابتهم ضيفاً فلا يدعونه يذهب الا بعد ان يكونوا قد امسكوه اياماً. فقد ذكر الكتاب عن لاويّ انه نزل في بيت لحم عند حميه ولما شاء بعد ثلثة ايام ان يرجع الى وطنه في جبل افرائيم شدد عليه حموه ان يبقى، فلم يتمكن من السفر الا بعد خمسة ايام[3]. وقد تبلغ عندهم محبة الضيافة انهم يتعرضون لاكبر الاخطار حماية لضيوفهم فمن هذا القبيل ما فعلته راحاب لما جاءها في اريحا الجاسوسان من قبل يشوع بن نون وأشعر بهما. فخبأتهما في المدينة في بيتها متعرضة بذلك لسخط الملك وشديد عقابه اذ كان العسكر يجدّ في طلبهما وقد أُخبر انهما دخلا منزلها[4]. ولم تكن الضيافة عند اليهود باقل كلفةٍ ونفقةٍ مما هي عليه اليوم عند العرب كما ذكرنا. فقد بيّن ذلك نحميا في خطابه لليهود لما اراد ان يزكي

(١) تكوين ١٨　　(٢) تكوين ١٩
(٣) قضاة ١٩　　(٤) سفر يشوع الفصل ٢

نفسه امامهم قال :

« وكان على مائدتي من اليهود والولاة مئة وخمسون رجلاً فضلاً عمن قدم الينا من الامم الذين حوالينا وكان يهيأ لي كل يوم ثور ومئة من خيار الغنم ما خلا الطير وفي كل عشرة ايام من انواع الخمر شيء كثير[١] »

وكان عندهم الشيخ في القرية هو الذي يجب عليه ان يقوم باعباء الضيافة فيها لكل من يردها كما هو الحال اليوم عند العرب ايضاً. ولذلك كانوا ينتدبون لهذه المكانة من كان موسراً ومقتدراً بينهم بدليل هذه الاية من اشعيا النبي

« حينئذ يمسك الاخ اخاه في بيت ابيه قائلاً: ان لك ثوباً فكن حاكماً علينا وهذا الخراب يكون تحت يدك . فيجيب في ذلك اليوم قائلاً : ما انا بطبيبكم، انه ليس في بيتي خبز ولا ثوب فلا تجعلوني حاكماً على الشعب[٢] »

٣ قهوة العرب

دخلت القهوة بلاد العرب في القرن التاسع للهجرة واول من اتى بها من فارس الى عدن في اليمن جمال الدين سنة ١٤٢٠ للمسيح[٣] فزرعها هناك وانتشر امرها في بلاد العربية والشام

---

(١) سفر نحميا ٥ : ١٧ وكذلك سفر اخبار الايام الثاني ١٨ : ٢

(٢) اشعيا ٣ : ٦

(٣) جاء في تاج العروس : البن ثمر شجر باليمن يُغرس حبه في اذار

ومصر[١] وجلت مكانتها . فقام حينئذٍ بسببها جدال بين اهل الكتاب وعلماء الفقه وتنازعوا في هل هي داخلة في حكم التحريم الذي يشمل المسكرات . فحللها قوم وحرمها آخرون لِما في ابخرتها من التأثير في المخيلة . وظلت الى اليوم مغضى عنها في الاسلام حتى اصبحت كأنها حلال

قال فيها احد مشايخهم الاكابر :

قهوة البن حلالٌ ما نهى الناهون عنها
كيف تدعوها حرامٌ وانا اشرب منها

نظير القهوة التبغ من حيث الحلال والحرام فقد تُنوزع فيه[٢] بيد انه قد تبع اخته وصار شائعاً عندهم وعمّ شربه عند الكبير والصغير حتى انهم يقولون « فنجان قهوة وقصبة تبغ وليمة تامة » وجاء في امثال الفرس : « القهوة بلا تبغ كالطعام بلا ملح »

وينمو ويُقطف في آب . ويطول نحو ثلاثة اذرع على ساق في غلظ الابهام ويزهر ابيض يخلف حباً كالبندق وربما تفرطح كالباقلا . واذا تقشر انقسم نصفين وقد جُرب لتخفيف الرطوبات والسعال والبلغم وفتح السدد وادرار البول . وقد شاع الان اسمه بالقهوة اذا حمص وطبخ

(١) ثم دخلت الاستانة سنة ١٥٥٠ ومنها الى اوربا ففرنسا واول من شرب منها الملك لويس الرابع عشر سنة ١٦٤٤

(٢) جاء في حديث لهم ما معناه : انه سيكون في آخر الزمان قوم يدعون مسلمين وما هم من الاسلام في شي. يدخنون ضريعاً او نباتاً يقال له تبغ

وللقهوة اليوم عند عامة العرب المنزلة الاولى في الضيافة وعند مجالس الانس والطرب او الاجتماعات الخصوصية والعمومية، واذا دعوا احداً الى اجتماع او طعام او مبيت قالوا له: «تفضل اشرب القهوة عندنا»

وهم يحتفلون بها ايّ احتفال . فقد اعدوا لها في وسط المضافة بمقربة من الباب حفرة صغيرة يسمونها «النقرة» يكاد لا تنقطع فيها النار الشتاء كله[1]. فيها يحمصون القهوة ويطبخونها امام الحضور على النمط الآتي :

حالما يلج الضيف محل الضيافة يذكون فيه النار وينضدون فوقها الحطب الجزل حتى انهم ليأتون بالجزعة الكبيرة وساق الشجرة الضخمة فيضعون طرفها في الموقدة فتعظم النار وترتفع لهيبها في تلك الحجرة حتى لقد يتصل بالسقف الذي يكون عادة في حوران من «الربض» اي الحجر الاسود المستطيل . وفي السقف فوق النقرة كوة صغيرة تدعى عندهم «روزنة» منها يخرج الدخان وقد ملأ قبلًا المضافة على وسعها او ضيقها بحيث اعمى العيون وعطّس الانوف وغمّ الصدور وكاد يقطع الانفاس . ولا احد من الحضور يبالي لما قد اعتادوا ذلك من صغرهم الا ذاك المسكين المدني الذي جاءهم ضيفاً وهم لاجله ولاكرام وفادته يبالغون في تذكية النار غير دارين بما يسبّب

(١) من ذلك قولهم : فلان كثير الرماد اي كثير الضيافة فهو كريم جواد

له ذلك من الانزعاج

اما الطامة الكبرى فحينما ينقصهم الحطب لفقر او لتعذر وجوده، فحينئذ يشعلون النار بزبل البقر والحمير الذي يخلطونه بقليل من التبن وييبسونه في الشمس ملصقينه على جدران بيتهم قطعاً مدورة تدعى « جلة » . فهي في النار تأتي بدخان كثيف ورماد كثير ورائحة كريهة

ثم يباشرون صنع القهوة فيحمّصون البن في محماصة من حديد ذات ساعد طويل ويحركونها بقضيب من حديد متصل بطرف المحماصة بسلسلة صغيرة . وجميع الحضور ملتفون حول النار ومتكئون على مساندهم يشهدون صنع القهوة وهم يتجاذبون اطراف الحديث. واذ يفرغ المضيف من تحميص البن يلقيه في مهباج هناك (هاون) مَن خشب ثمين اي من البطم او صنف آخر من الخشب القاسي .وهو يكون محفوراً ومرصعاً بقطع من الصَدَف او من خيط النحاس او الفضة .وله عند الدق رنة لطيفة ناعمة . فيتناول صاحبه المدقة وهي من الخشب عينه طويلة وبديعة الصنع فيدق البن على وزن وايقاع يطرب الحضور بحيث يصغون اليه مرتاحين . وفي دقّ القهوة عندهم مباراة ومنافسة من حيث رشاقة اليد وطيب النغم ومواصلة العمل بغير تعب الى ان تُسحق تماماً

وكنت يوماً في مضافة في اطراف اللجا عند جبل الدروز

وقد جمعت عدداً وافراً من الضيوف . فلما حان وقت دق البن دعا صاحب البيت ولدين له صغيرين واشار اليهما بدقه. فاسمعانا حينئذٍ نغمة شجية جذبت اصغاءنا واثارت تعجبنا فاثنينا على مهارتهما وهنأنا بهما والدهما

وبينما يُدق البن يكون الابريق او الاباريق النحاسية بجانب النار يسخن فيه الماء الى ان يغلي فيضعون فيه البن وقليل من حب الهال ليطيب القهوة بطعمة بهارية عطرية . ولما ان تفور على النار بضع دفعات يدعونها تروق هنيهة ثم يتناول منها صاحب البيت الذي عملها ويذوق قبل الجميع وبعد ذلك يصب في فنجان واحد او في اثنين على الكثير واضعاً في كل فنجان قليلًا في قعره ويقدم الى اول الحاضرين . فيعرضه هذا على الذي بجانبه تنازلاً واذ يرفض يشربه ويرجعه الى صاحبه فيصب فيهِ جديداً ويقدم للثاني فالى الثالث الى اخر الحضور. ثم يلبث برهة ويعود الى العمل عينه مقدماً القهوة ثانية الى الجميع على الطريقة الاولى . ويصير شرب القهوة هكذا عندهم مرات عديدة الى ان يفرغ الابريق. وهم يقولون في امثالهم: « الفنجان الاول للسيف والثاني للضيف والثالث للكيف » يريدون ان الاول ضروري لرفع العداوة والثاني لاكرام الضيف والثالث للانس والطرب

واذا فرغت القهوة وقد وفد ضيف جديد فحينئذ يعيدون

طبخها مرة اخرى على الهيئة التي مرّ وصفها

وفي اثناء دق البن يتوافد الجيران والمارون بذلك البيت حين يسمعون صوت المهباج كأني به يدعوهم الى شرب القهوة، فيدخلون غير مندوبين ويشربون القهوة مع من شرب ثم يخرجون بعد هنيهة غير مبالين . ويكاد يكون ذلك دأبهم كلما مروا بقرب مضافة واشتموا منها رائحة القهوة

وقد اخذ بعض العرب من اهل الحضر يقدمون لضيوفهم في الشتاء الشاي والقرفة ويسمونهما القهوة البيضاء

وبينما صاحب الضيافة يطبخ القهوة ويقدمها مراراً يهتم اهل البيت باصلاح الطعام للضيف

٤ً الخمر عند العبرانيين

لا حاجة الى القول ان القهوة لم تكن معروفة عند العبرانيين قديماً حيث ان اكتشافها وان مجهول الاصل لا يرتقي على ما نعهد الى ما قبل المسيح والمرجح عندنا انه كان عندهم نوع من العقاقير او النباتات العطرية يستعملونه للتفكه او للتنبه نظير القهوة عندنا، فلندع الان هذا البحث الغامض الى اصحاب الآثار القديمة ولنقل كلمة فيما نعرف من شرابهم مما ينبئنا عنه الكتاب المقدس

كان العبرانيون على حدّ من يجاورهم من الامم الوثنية يشربون النبيذ نظير الماء صرفاً او ممزوجاً به . واليك الآيات الكتابية التي تبين ذلك :

قال ابن سيراخ (٣٩ : ٣١) : « راس ما تحتاج اليه حياة الانسان الماء والنار والحديد والملح والسميد والحنطة والعسل واللبن ودم العنب (اي النبيذ) والزيت واللباس »

وفي محل آخر يقول : « الخمر حياة الانسان اذا اقتصدت في شربها واي عيش لمن ليس له خمر . الخمر من البدء خلقت للانبساط لا للسكر. الخمر ابتهاج القلب وسرور النفس لمن شرب منها في وقتها ما كفى. الشرب منها في وقتها صحة للنفس والجسد » (٣١ : ٣٢)

وجاء في سفر دانيال (١ : ٥) « نبوكدنصر قد وظف للفتيان الذين اتى بهم من ارض يهوذا رزق كل يوم في يومه من طعام الملك ومن خمر شرابه »

وكان ما بين الزاد الذي جاء به الوفود الى داود في حبرون « دقيق واقراص تين وعناقيد زبيب وخمر وزيت » (اخبار الايام الاول ١٢ : ٤٠)

وجاء في اخبار الملوك ٢ (٢ : ١٠) عن سليمان « انه كان يعطي القطاعين الذين يقطعون الخشب ٢٠٠٠٠ كر من الحنطة ومثله من الشعير و ٢٠٠٠٠ بثّ من الخمر ومثله من الزيت[١] »

وذكر الكتاب عن رحبعام « انه وثق الحصون وجعل فيها قوادًا وخزائن طعام وزيت وخمر » (اخبار الايام ٢ : ١١ : ١١) ولما توعد الله شعبه قال بفم عاموص النبي (٥ : ١١) « وتغرسون كروماً شهية ولا

---

(١) البث او الاينة يعادل نحو اثني عشر رطلًا اما الكر او الحومر فهو عشرة ابثاث

تشربون من خمرها »

اما في مواعيده فيقول (٩ : ١٤) « وارد شعبي فيبنون المدن ويسكنونها ويغرسون كروماً ويشربون من خمرها وينشئون جنات »

وكانت الخمر من ضروريات المعيشة يأخذون منها للسفر كالزاد والماء .

« فان صيبا غلام مفيبوشت لما لقي داود هارباً من وجه ابيشالوم كان معه الزبيب والتين والخبز وزق خمر » (٢ ملوك ١٦ : ٢)

ونظيره الشيخ الذي اتى جبع بنيامين (قضاة ١٩ : ١٩) « فكان معه علف لحماره وخبز وخمر لطعامه »

وكانوا يأتون داود (وهو في مهربه) بخبز وطعام من دقيق واقراص تين وعناقيد زبيب وخمر وزيت الخ ... (اخبار الايام الاول ١٢ : ٤)

بل انهم كانوا يعتقدون شرب الماء قراحاً مضرّا اذا لم يمزج بقليل من الخمر فقد قال كاتب سفر المكابيين في نهاية كتابه الثاني (١٥ : ٤٠) « كما ان شرب الخمر وحدها وشرب الماء وحده مضر . وانما تطيب الخمر ممزوجة بالماء وتعقب لذة وطرباً كذلك تنميق الكلام على هذا الاسلوب يطرب مسامع مطالعي التأليف »

وانه في وسعنا ان نطيل من سرد مثل هذه الآيات التي تثبت عادة شرب الخمر عند اليهود على ان بما تقدم كفاية[1]

وانما حظر سفر الاحبار المسكر والخمر على الكهنة اذا دخلوا خباء المحضر[2] وكذلك الناذرون وبنو بيت الريكابيين

---

(١) طالع ايضاً نحميا ٥ : ١٨ و ١ ملوك ٢٥ : ١١ و ٣٠ و ٢ اخبار الايام ٣١ : ٥ ونحميا ١٠ : ٣٧ و ١ ملوك ١٦ : ٢٠ واشعيا ٢٢ : ١٣ و٢٥ : ٦ وارميا ٣٥ : ٥

(٢) طالع سفر الاحبار ١٠ : ٩

كانوا يحرمون انفسهم شرب الخمر لوجه الله[1]

والذي عندنا ان المسيحيين في الشرق الا طائفة منهم[2] كانوا على عوائد اليهود والوثنيين من شرب الخمر الى ان حرمه الاسلام لذويه فجاروا المسلمين جيرانهم في ذلك . وانما حمل محمداً على تحريم الخمر وكل المسكرات انه راى شرها اكثر من منافعها كما صرح القرآن في ذلك[3] وهكذا بطلت عادة شرب النبيذ في شرقنا على ما هو الحال اليوم

---

(١) سفر العد ٦ : ٢ وارميا ٣٥ : ٥ « وجعلت امام بني بيت الريكابيين بواطي ملأى من الخمر وكؤوساً وقلت لهم اشربوا خمراً . فقالوا نحن لا نشرب خمراً لان يوناداب بن ريكاب ابانا امرنا قائلاً : لا تشربوا خمراً انتم ولا بنوكم الى الابد »

وقد جاء ايضاً في سفر الامثال (ف ٢٣) « لمن الويل لمن الشقاء لمن المنازعات لمن الشكوى لمن الجراحات عن غير علة لمن اظلام العينين ؟ للذين يدمنون الخمر، للذين يدخلون ليذوقوا الممزوج . لا تنظر الى الخمر اذا احمرت وابدت في الكاس حببها انها تسوغ مرينة لكنها في الاخر تلسع كالحية وتبث سمها كالارقم . تنظر عيناك الغرائب وينطق قلبك بالفواحش وتكون كمضجع في قلب البحر او كنائم على رأس السارية وتقول ضربوني ولم اتوجع رضضوني ولم اشعر . متى استيقظ فاعود الى التماسها »

(٢) وهم المائيون ودعوا كذلك نسبة الى الماء الذي لم يبيحوا شراباً غيره

(٣) طالع سورة البقرة ٢١٦ وسورة المائدة ٩٢

٥ً وليمة العرب

كرم العرب الذي يضرب به المثل يكون معظمه كما تقدم في ضيافتهم . وانما محور الضيافة على الطعام . هناك سخاؤهم واكرامهم للضيف . فاذا كان عزيزًا لديهم او جليلًا وذا مقام ووجاهة ذبحوا له حين قدومه ذبيحة او نحروا له عجلًا او جزورًا ولقد يفعلون ذلك كل يوم ما دام عندهم

ونكرم ضيفنا ما دام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

ثم يعجنون في الحال ويعملون له خبزًا فطيرًا على الصاج او مليلًا لذيذًا . وقد يكونون احضروا له قبلًا ماء مسخنًا ليغسل رجليه من غبار الطريق وينال راحة

اما اصلاحهم الطعام فعلى غاية ما يكون من البساطة . فانهم لا يعرفون على الغالب طبخًا غير سلق اللحم او قليه او شيه . واكثر ما تكون تهيئتهم لما ذبحوا انهم يسلقونه بالماء ويعدون له الارز او البرغل لا غير

فلما ان ينضج الطعام يأتي غلام وبيده ابريق وطست ويغسل ايدي الحضور او يدور عليهم بكيلة من خشب فيها ماء فيغمس كل منهم اطراف اصابعه فيه وينفضها في الارض او يمسحها بذيل ثوبه اذا لم يقدم له الخادم منديلًا ثم يؤتى بسماط من جلد

محمول. باطرافه الاربع(١) ويبسط في وسط المضافة وفيه الخبز فينضده امام الحضور اكداساً اكداساً. ولا تلبث ان ترى رجلين حاملين طبقاً كبيراً من نحاس فيه البرغل او الارز المطبوخ عالياً كالطود الشامخ وفوقه الحمل المسلوق او المقلي وفي جوانبه يسيل السمن كالسواقي وهذا ما يسمونه « المنسف » وبهِ يفتخرون واليه يتوقون . فيوضع على السماط بين الجماعة . وحينئذ يدعو صاحب البيت ضيوفه الى الطعام فيقومون اليه منادين بعضهم بعضاً ويقتربون من المنسف ثم يحسرون عن سواعد كأنها قطع من نحاس احمر ويسمون باسم الله الكريم وينزلون بالمنسف فاتكين ولا نزولهم في حومة الوغى. واول ما يباشرون بهِ تمزيق الحمل مفصلين عظامه « وهم يعرفون جيداً من اين تؤكل الكتف » فيتناول الواحد منهم عظمة ويجردها باسنانه ثم يجمع الارز او البرغل باصابعه ويعمل منه كتلة صغيرة قدر الليمونة ويقلبها في راحته حتى تستدير تماماً(٢) ثم يغمسها بالمرقة ويقربها من فيه ويدفعها فيه بالابهام ويزدردها ولا يكاد يمضغها باسنانه اما الملعقة او الخاشوقة كما يسمونها فلا استعمال لها عندهم وقتئذٍ

---

(١) نظير السماط الذي رآه القديس بطرس في الرؤيا هابطاً من السماء وفيه طعام (طالع اعمال ف ١٠ ع ١١)

(٢) وهم يقولون لذلك « دربل يدربل » اي اكل على الصفة المذكورة

وقد جلست واياهم غير مرة على الطعام واجتهدت ان اماثلهم في اكلهم فلم اتمكن من ذلك تماماً . حتى اذا لاحظ احدهم تقصيري اخـذ ينثر لي اللحم ويضعه امامي . ثم اتوني بخاشوقة (اي بملعقة من خشب) وهي لا تكاد تدخـل في فم الجمل لكبرها فاضطررت ان ارجع الى الاكل بيدي

ويكون صاحب الضيافة واقفاً امام ضيوفه يخدمهم ويأتيهم مرة بعـد اخرى بالسمن المسخن ويسكبه فوق المنسف وكلما كثر منه كان اشهر بالكرم واحق بالثناء وهم يقولون لتشجيعه « المعزب ربّاح » اي انه يربح حسن السمعة وطيب الاحدوثة . وقد بلغني ان احدهم قد صب على منسف واحد اكثر من خمسة عشر رطلاً من السمن

ولا غروَ فان ملذة العرب في كثرة السمن . فهم يقلبون لقمتهم مراراً فيه قبل ان يتناولوهـا وترى السمن ينقط من انامل‌هم واكواعهم وسواعدهم . واذا طبخوا البرغـل سلقوه سلقاً ثم فتحوا فيه جوفاً وصبوا فيهِ السمن وطموه بهِ فيسيل من جوانبه جداول ويصلح بهِ

وقد يكون مع منسف اللحم والبرغل اشكال اخرى مصفوفة بجوانبهِ كالبيض المقلي والدبس والعسل والزيتون وما شاكل . فيتناول الجلوس من كل صحفة لقمة . على ان اكثر ما تمتد اليه ايديهم اللحم والارز حيثما وجدا

ولم ارَ احدًا منهم يشرب على الطعام ولعل لهم في ذلك عادة صحية[1] . بيد ان اول ما يتبادر الى الذهن انهم يتسابقون الى قرم اللحم ونيل نصيبهم من لذيذ الطعام فلا يفكرون معه بالماء . على انهم اذا ارادوا الشرب يكرعون كلهم من اناء واحد . ولا تعاف نفسهم

وكلما شبع الواحد منهم قام عن الطعام وبادر الى محله آخر ممن ينتظرون . وقد ياكل من المنسف الواحد بضع عشرات من الرجال . ولا شك ان الاولين منهم هم الغانمون من اللحم والارز والسمن الغزير . على انهم لا ينسون من ينتظرون وراءهم . فانهم وقتاً بعد آخر يناولونهم فلذة من اللحم او عظمة عليها قليل منه قائلين لهم : « هاك » فيشتغلون بها ريثما تأتي نوبتهم

وهم قلما يتكلمون على الطعام . بل يأكلون صامتين ويقومون شاكرين لله وللمضيف قائلين له : « الله يخلف عليك . كثر الله خير المعزبين . ان شاء الله بفرح اولادهم »

ولا يقوم آخر الآكلين حتى يكون المنسف على كبره قد باد واضمحل . فيأتي الغلمان ويجمعون ما بقي من الخبز[2] ثم

---

(١) هذا مع ابتعادهم عن اكل السكر او الحلويات اليبسة وغسلهم فمهم بعد تناول الطعام يحفظ لهم اسنانهم صحيحة بيضاء ناصعة

(٢) كما امر السيد المسيح تلاميذه ان يجمعوا الكسر بعد تكثيره الخبز في البرية طالع يوحنا ٦ : ١٢

يلمون السماط باطرافه ويحملونه ويكنسون مكانه

ويقف عند عتبة المضافة غلام بيده ابريق فيصب على ايدي الاكلين ماء ليغتسلوا وعلى كتفه منديل لمسح الايدي او يحمله آخر ويقف الى جانبه . فاذ ينتهي الضيف من تطهير يديه يقول لمن صبّ له الماء : « آجرك الله » فيجيبه هذا « سامحك الله »

ثم يرجع كل الى مكانه وتدور عليهم القهوة

٦ آداب اليهود عند الطعام

اذا حلّ ضيف عند العبرانيين قديماً بادروا اليه بالترحيب والاكرام ثم قدموا له ماء ليغسل رجليه كما فعل ابرهيم بثلاثة الملائكة الذين وفدوا عليه من قِبل الرب . وقبل الطعام يطهرون ايديهم وقد بلغ منهم شدة تمسكهم بهذه العادة انهم نقموا على المخلص ولاموه شديداً لانه اكل هو وتلاميذه دون ان يغسلوا ايديهم[1] . اما الاسينيون[2] فكانوا يستحمون بكليتهم

(١) طالع متى ١٥ : ٢ و ٢٠ ومرقص ٧ : ٢ ولوقا ١١ : ٣٨

(٢) الاسينيون طائفة من اليهود قد تألبوا في غربي بحيرة لوط وكانوا يعيشون هناك عيشة شظفة ويمتنعون عن اكل اللحوم وعن مخالطة الناس : (طالع رحلة الفيلسوف الروماني صفحة ٢٥)

قبل تناولهم غذاء الظهر. وقد غسل الرب يسوع ارجل تلاميذه عند اكلهم العشاء السري[١]

واذا ادركهم الضيف على حين غرة ولم يكن لديهم خبز اصلحوا له فطيراً مليلاً[٢]

وكان العبرانيون قديماً يجلسون الى مائدة ليتناولوا طعامهم[٣] ثم اخذوا فيما بعد يتكئون على مساند ومقاعد حين يأكلون

قال عاموس النبي (٦ : ٤) « وتضجعون على اسرة من عاج وتتبسطون على حجالكم وتأكلون الحملان من الغنم والعجول »

وقد اقتبسوا هذه العادة من الرومانيين اذ كانت مختصة بالاحرار . فكانت هذه الاسرّة توضع حوالى مائدة الطعام . ويترك جانب منها للخدمة ويفرشون فوقها الارائك والنمارق من الحرير والديباج اذا كانوا من الاغنياء . ويسع كل سرير ثلاثة او اربعة رجال يضجعون فيه على الجانب الايسر متكئين على مرافقهم وساندين رأسهم براحتهم ويمدون ارجلهم الى الوراء بحيث

---

(١) يوحنا ١٣ : ٥

(٢) طالع رواية ابرهيم (تكوين ١٨) ورواية ايليا النبي عند الارملة (سفر الملوك الثالث ف ١٧)

(٣) طالع سفر التكوين ٢٧ : ١٩ والقضاة ١٩ : ٦ و١ ملوك ٢٠ : ٥ و٢٤ و٣ ملوك ١٣ : ١٩. وتلك كانت ايضاً عادة الرومانيين والمصريين قديماً

يكون رأسهم الى المائدة ويتناولون بيمينهم الطعام[١] . وعلى هذه الهيئة كانوا يأكلون خروف الفصح على عهد المسيح

فلا شك ان السيد له المجد قد راعى آداب قومه لما اكل الفصح الاخير مع تلاميذه . فانه اقام الصلاة التي نص عليها علماؤهم[٢] وغسل ارجل التلاميذ بدل ايديهم اتضاعاً منه وتنبيهاً لهم على زيادة الحرص لنقاوتهم . ثم اضجع معهم على الاسرة وكان يوحنا الحبيب الى يمينه . فلما اراد ان يسأله عمن هو مزمع ان يخونه مال برأسه الى الوراء فجاء في حضن المخلص[٣] اي انهُ قد اسند راسه الى صدره الالهي

وكانوا قبل الطعام وبعده يصلون ويباركون على حد ما اوصى الرب في الشريعة[٤] ثم يأكلون كلهم في قصعة واحدة مغمسين فيها بايديهم نظير العرب ولذلك لم يتمكن الرسل من معرفة الخائن لما اشار اليه المخلص قائلًا : « الذي يغمس يده معي في الصحفة هو يسلمني[٥] »

---

(١) وهكذا تمكنت مريم المجدلية من غسل رجلي السيد بدموعها ودهنها بالطيب (طالع لوقا ٧)

(٢) وهي المزامير ١١٣ الى ١١٨ .

(٣) انجيل يوحنا ١٣ : ٢٣

(٤) تثنية الاشتراع ٨ : ١٠ وطالع ايضاً ١ ملوك ٩ : ١٣ ومتى ١٤ : ١٩ ولوقا ٩ : ١٦

(٥) متى ٢٦ : ٢٣

وكانوا يأتون باللحم مقطعاً في جفنة وبقية الاشكال في صحاف صغيرة . فيأخذ منها رب البيت ويعطي كلًّا من اولاده او ضيوفهِ نصيبه[١] فيضعها هذا على رغيفه ويتناولها باصابعه . فاننا لم نرَ اثرًا في الكتاب للملعقة او المشك (الشوكة) . اما المرقة وما شاكلها فكانت في قصعة واحدة يغمس فيها كل لقمته

وانواع الاطعمة تتفاوت في الكثرة والتهيئة حسب حال البيت من اليسر او الفاقة . فالفقراء كانوا يكتفون بتغميس خبزتهم في الزيت او الخل او اللبن او يأكلون الحبوب من الذرة او الحمص او الفول محمصة او مسلوقة بالماء لا غير . والاغنياء يتنافسون بكثرة الاشكال وملذتها كما وصفهم عاموس النبي في الآية السابق ذكرها[٢]

وكانت الولائم مرغوبة عند اليهود ولاسيما فيما بين اهل الاسرة الواحدة[٣] فيجتمعون لفرح او لتعزية او لعيد او ذكرًا لحادثة مهمة في تاريخ ذلك البيت . فتضم تلك الوليمة عددًا وافرًا من الجلوس[٤] . فيرسلون العبيد والخدام لدعوتهم[٥] وعند وصولهم يبادرونه بالترحيب والتقبيل[٦]

---

(١) ١ ملوك ١ : ٤

(٢) عاموس ٦ : ٤ ـ ٦و٣ ملوك ١ : ٢٥ واشعيا ٢٥ : ٦ ومتى ٢٢ : ٤

(٣) طالع يوسيفوس : العاديات اليهودية ١٤ : ١٠

(٤) تكوين ٢٩ : ٢٢و١ ملوك ٩ : ٢٢ و٣ ملوك ١ : ٩ ولوقا ٥ : ٢٩

(٥) امثال ٩ : ٣ ومتى ٢٢ : ٣ (٦) طوبيا ٧ : ٦

وقد ذكر السيد المسيح آداب الوليمة عند اليهود على عهده في جوابه لسمعان الذي اضافه قال مدافعاً عن مريم المجدلية :

« اترى هذه المرأة . انا دخلت الى بيتك فلم تسكب على رجلي ماء، وهذه بلت رجلي بالدموع ومسحتها بشعر راسها . انت لم تقبلني، وهذه مذ دخلت لم تكف عن تقبيل قدميَّ . انت لم تدهن رأسي بزيت، وهذه دهنت قدمي بالطيب » (لوقا ٧ : ٤٤_٤٦)

وانما كانوا يدهنون بالزيت او الطيب رأس من يريدون اكرامه زيادة على غيره او في المآدب الدينية[١]

٧ طعام العرب

العرب يأكلون مما تنتج لهم ارضهم وتدر عليهم به انعامهم اعني الحبوب والالبان واللحوم . وهم يقتصرون من الحبوب على الحنطة والعدس والذرة وقلما يحفلون بالحمص والفول ولا تكاد تجد عندهم غير ذلك من انواع القطاني نظير اللوبياء والبازلاء وما شاكل

اما البقول والفواكه على اصنافها فقليل ما هي في بلاد قد اضحت ساحة الغزو ومسارح الابل ومطارح الاعتداء والسرقة . ولم اكد اجد لها اثراً اثناء تجولي في انحاء حوران

---

(١) طالع عاموس ٦ : ٦

والبلقاء الا في بعض المدن الآهلة التي استتبَّ فيها الامن بتأييد سلطة الحكومة . وعليه اكثر ما ياكل العرب من اصناف الخضر يأتيهم من فضلات المدن كالكوسى والخيار والبندورة والكرنب (الملفوف) والقرنبيط (الزهرة) والباذنجان والفجل والبصل في بعض الانحاء . ومن الاثمار المشمش والتفاح والاجاص والعنب والزيتون والتين والبلح والبطيخ والليمون والبرتقان

وحين يفد البياع بهذه الاثمار يتألب عليه اهل القرية او سكان الخيم ويبتاعونها منه على علاتها ويدفعون له ثمنها حباً من غلات ارضهم

وقد تمضي السنة كلها بل السنون الطوال على بعضهم ولا يذوقون شيئاً من هذه البقول او الثمار ولعل بعض المتوغلين منهم في اطراف البادية لا يرون هذه المأكولات حياتهم كلها

وقد انتدبتُ يوماً في حوران الى تناول الطعام عند بعض المسيحيين وكان ذلك في الصوم الكبير . فقدم لنا احسن اكلة عندهم في مثل هذه الظروف وهي « المجدرة » بيد انه لم يجد عنده بصلة يطيب بها طعامه فبعد السعي لدى الجيران حظي بواحدة صغيرة فقدمها لنا وكنا خمسة

وفي محل آخر التمسنا نقطة زيت زيتون في القرية كلها لنمسح بها مريضاً فلم نجد حتى منَّ بها علينا احد المشايخ

الدروز . وكان زيتهم في تلك القرية المتطرفة في جبل حوران من البطم يقدمونه في القصاع للطعام فتبس فيه الخبز وتأكله فتشعر اولاً بحلاوة ولكنك لا تبلع اللقمة حتى تحس كأن سكيناً باتراً قد حزّ حلقك

وهم في الغالب لا يذوقون اللحم الا حينما يذبحون لضيف او لعرس او لمناحة او لايفاء نذر . واكثر ما يذبحون من الانعام لطعامهم الخروف والماعز ولا يكرهون لحم الجمل بل ينحرونه في البادية للضيف الكريم . اما العجل والبقر فقليل ما يأكلونه . وقد يقتنصون الغزال والحجل وغيره من الطيور فيتنافسون بأكله[1]. على ان غذاءهم المألوف انما هو الخبز القفار او المغموس باللبن او الدبس او السمن او الزيت . ولا يطبخون عادة الا المساء وهي الاكلة الكبرى التي فيها يجتمع كل اعضاء العترة . وكثيراً ما كنت ارى الاولاد صباحاً وظهراً يغتذون برغيف خبز ينهشونه باسنانهم بغير ادام . وان عدداً وافراً منهم ليس عنده من الحنطة ما يكفيه لميرته ولوفاء ديونه فيطحن الذرة ويعمل منها خبزاً لذيذ الطعم ما دام حديثاً . وهم في الغالب

---

(١) قد حرم محمد على المسلمين من اللحوم الميتة والدم والخنزير وما أُهلَّ به لغير وجه الله والمنخنقة والموقودة والمتردية والنطيحة وما افترس السبع . (طالع في القرآن سورة البقرة ١٦٨ والمائدة ٤ والانعام ١٢١ و١٤٦ والنحل ١١٦) اما عند الضرورة فيباح كل طعام (طالع الآيات عينها)

يعجنون كل يوم . وعند الحاجة يخبزون فطـيراً . ويصلحون خبزهم على الصاج او في الطابون على الحصى او في التنور

ولهم اكلة فاخرة شهيرة عندهم تدعى « اللزاقيات » يعملونها بالخبز السخن والسمن والسكر طباقاً طباقاً ويقدمونها لمن يكرمون من الضيوف

وهم لا يعرفون الجبن الا قليلاً . غير انهم يصفون اللبن المخثر ويعملون منه كتلاً فييبسونها بالشمس ثم يحفظونهـا لاسفارهم ولأيام الشتاء . فعند تناولها ينقعونها بالماء حتى تداف فيه فتعود لبناً حامضاً فيغمسون فيه الخبز وياكلونه . وهـذا النوع من الجبن الميبس يسمى عنـدهم بالكشك . اما الزبدة والسمن فكثيران عندهم وقد باشروا من عهد قريب يبيعونها وكانوا قبلاً ينفقونها على عيالهم وضيوفهم(١)

---

(١) لقد عجبت لقول بعض كتاب الافرنج الذي تحروا درس العوائـد العربية تفسيراً للكتاب المقدس كيف يثبتون في مصنفاتهم المتقنة في هـذا الباب ان العرب الى اليوم لا يعرفون السمن !

طالع Sainte Bible - Introduction générale par M. l'Ab. Trochon. - Lethielleux - p. 419.

٨ً طعام اليهود

كان طعام آدم في الفردوس من ثمار الجنة التي كان يحرثها[1] ثم بقيت من بعده ذريته على اكل البقول وانواع الانبتة والثمار حتى جاء الطوفان وجحف الحقول والبساتين وقد ضعفت بنية الانسان نوعاً بما استولى عليه من الفساد الادبي والآلام النفسية التي انهكت قواه الجسدية حينئذ اذن الرب لنوح ولبنيه ان ياكلوا من لحوم الحيوانات التي حفظوا كل انواعها في التابوت بامر منه

« وبارك الرب نوحاً وبنيه وقال لهم . اكثروا واملأوا الارض وخوفكم وذعركم يكونان على جميع وحش الارض وجميع طير السماء وكل ما يدب على الارض واسماك البحر انها مسلمة الى ايديكم . وكل حي يدب يكون لكم مأكلا وكبقول العشب اعطيتكم الكل ولكن لحماً بدمه لا تأكلوا » (تكوين ٩ : ١ ـ ٤)

فشرع الانسان يذبح الحيوانات على اختلاف انواعها منتقياً منها ما طاب ولذ له اكله . بيد انه تعالى لاسباب ادبية وصحية معاً قد حرم شعبه قديماً تناول بعض انواع اللحوم واباح غيرها كما جاء في سفر تثنية الاشتراع :

---

(١) تكوين ١ : ٢٩

« وهذا ما تأكلونه من البهائم : البقر والضان والمعز والآيل والظبي واليحمور والوعل والرئم والثيتل والزرافة وكل بهيمة ذات ظفر مشقوق شطرين وهي تجتر من البهائم فاياها تأكلون . واما هذه من المجترات ومن ذوات الاظفار المشقوقة فلا تأكلوها : الجمل[1] والارنب والوبر فانها تجتر ولكنها ليست بذات ظفر مشقوق فهي رجس لكم والخنزير فانه ذو ظفر مشقوق ولكنه لا يجتر فهو رجس لكم لا تأكلوا شيئاً من لحمها ـ وهذا ما تأكلونه من جميع ما في الماء : كل ما له زعانف وفلوس فاياه تأكلون وكل ما ليست له زعانف وفلوس فلا تأكلون انه رجس لكم . كل طائر طاهر فكلوه وهذا ما لا تأكلونه منه : النسر والانوق والعقاب والحدأ والصدى والمرزة باصنافها وجميع الغربان باصنافها والنعام والخطاف والساف والبازي باصنافه والبوم والباشق والشاهين والقوق والزمج والرخم واللقلق والببغاء باصنافه والهدهد والخفاش وجميع دبيب الطائر رجس لكم لا تأكلوه . وكل طائر طاهر فكلوه . وما له رجلان اطول من يديه يثب بهما على الارض هذا ما تأكلونه منها : الجراد باصنافه والدبى باصنافه والحرجوان باصنافه والجندب باصنافه ـ وهذا هو نجس لكم من الدبيب الداب على الارض الخلد والفأر[2] والضب باصنافها والورل والحرذون والعظاءة والحرباء وسامّ ابرص ـ ولا تاكلوا شيئاً من النبائل وانما تعطيها الغريب الذي في مدنك فياكلها او تبيعها لانك شعب مقدس للرب الهك . ولا تطبخ جدياً بلبن امه[3] » (تثنية الاشتراع ف ١٤ وسفر الاحبار ف ١١)

---

(١) ومثله الحمار والبغل وما شاكلهما

(٢) يظهر ان اليهود لم يقفوا دائماً عند هذه المحرمات فقد ونبهم اشعيا النبي لاكلهم الخنزير والفار (طالع اشعيا ٦٦ : ١٧)

(٣) ولعل التلمود استند على هذه الآية حتى حرم طبخ اللحوم بالسمن ويقول اليهود في ذلك لئلا تجتمع روحان في طبخة واحدة

ولم يزل المتورعون من اليهود محافظين الى اليوم على هذه الشرائع والتقليدات القديمة التي قد نقضها المسيح السيد في العهد الجديد واقام بدلها شريعة الصوم وقهر النفس

واكثر ما كانوا يذبحون لطعامهم البقر والضأن والمعز . اما الاغنياء فكانوا يلتمسون الاطعمة اللذيذة من الحيوانات الشاردة والطيور النادرة[1] وكان الفقراء يأكلون الجراد مشوياً او مسلوقاً كما جاء عن يوحنا المعمدان في البرية[2] . وكلهم يرغبون في اكل الاسماك اذ كانت بلادهم على ساحل البحر وكفى ببحرة طبرية نبعاً للسمك الكثير[3]

واما الحبوب واصناف البقول والاثمار فلم يضع الرب فارقاً بين نوع وآخر من محلل او محرم . بل كل شيء كان مباحاً لهم فيأكلون ما يشتهون وما تقدمه لهم ارضهم . ويغتذون من

---

(١) طالع نحميا ٥ : ١٨

(٢) متى ٣ : ٤ ومرقس ١ : ١٦

(٣) طالع يوحنا ٢١ : ٦ . والى اليوم لا تزال هذه البحيرة غزيرة السمك حتى ليخرج منها الصيادون في بعض الايام ما ينيف على الاربعين قنطاراً من السمك . واليهود في تلك الجهات مغرمون باكل السمك . ومن تقليداتهم التلمودية انه يجب على كل اسرائيلي ان يتناول شيئاً من السمك يوم السبت ولو كان سردينا مع قليل من الخمر اشارة الى فرح يوم الراحة وقد رأيت منهم ذلك في صفد وطبرية

انواع الحبوب بجملتها كالحنطة والذرة والشعير[١] فيطبخونها ويصلحون منها خبزاً[٢]، والعدس والفول والحمص. وكانوا يشوون الحنطة على النار فريكاً[٣] فيأكلونها كذلك او يجرشونها ويطبخونها كالبرغل

ولما كانت ارضهم تدر لبناً وعسلاً كما قال الكتاب[٤] فكانوا يشربون لبن البقر والمعز والنعاج[٤] او يصلحونه طعاماً مطبوخاً[٥] ويعملون منه زبدة وسمناً[٦] وهذا كان طعامهم في غالب الاحيان. ولا شك انهم كانوا يعرفون الجبن بدليل تسمية واد في مدينة اورشليم بهذا الاسم فيدعى وادي الجبن او تيروبيون[٧] وقد ارسل يسى داود ابنه الى اخوته في المعسكر ومعه هدية جبن للقائد[٨]. اما العسل فكان كثيراً لديهم سواء كان برياً[٩] او بيتياً[١٠]

---

(١) ٤ ملوك ٤ : ٤٢

(٢) طالع سفر الاحبار ٢٣ : ١٤ وسفر يشوع ٥ : ١١

(٣) خروج ٣ : ٨ و١٣ : ١٥ واحبار ٢ : ٤ ويشوع ٥ : ٦

(٤) تثنية الاشتراع ٣٢ : ١٤ وامثال ٢٧ : ٢٧ (٥) تكوين ١٨ : ٨

(٦) قضاة ٥ : ٢٥ وامثال ٣٠ : ٣٣ و٢ ملوك ١٧ : ٢٩

(٧) تيروبيون كلمة يونانية (Τυροποιῶν) تعني عاملي الجبن كانهم كانوا يعملون الجبن في ذلك الوادي

(٨) ١ ملوك ١٧ : ١٨ وطالع ايضاً ايوب ١٠ : ١٠ (٩) نشيد ٥ : ١

(١٠) ١ ملوك ١٤ : ٢٥ ومتى ٣ : ٤ (μέλι ἄγριον) ولعل هذا الاسم اليوناني يدل هنا على نبات يعطي ثمرة حلوة كالعسل

فيأكلونه[1] ويهدونه[2] ويقدمونه للرب مع بواكير ارضهم[3]

وكانوا يأكلون ايضاً الدبس[4] والزبيب[5] والتين الجفيف[6] وغير ذلك من الاثمار الميبسة

ولا شك في ان اليهود كانوا يعملون من انواع الحلاوى المعجونة فكان عندهم القرص[7] والجردقة[8] والرقاقة[9] وما شاكل من ضروب الحلواء[10] التي تعلموها من المصريين لما كانوا في بلادهم[11]

---

(١) حزقيال ١٦ : ١٩ ـ امثال ٢٤ : ١٣ ولوقا ٢٤ : ٢٤ واشعيا ٧ : ١٥ ولما كان بعضهم يفرط في اكله قال صاحب الامثال ٢٥ : ١٦ : « اذا وجدت عسلاً فكل ما يكفيك لئلا تكتظ فتتقيأ »

(٢) ٢ ملوك ١٧ : ٢٩ (٣) اخبار الايام الثاني ٣١ : ٥

(٤) تكوين ٤٣ : ١١ (٥) ١ ملوك ٢٥ : ١٨ (٦) الآية عينها

(٧) نظير القرص الذي عملته الارملة لايليا النبي لما ضافها (٣ ملوك ١٧ : ١٣) فكان يحمص على النار ملياً من دون ان يحترق، وقد يكون من الشعير طالع حزقيال ٤ : ١٢

(٨) طالع ٢ ملوك ٦ : ١٩ وكانت الجردقة قرصاً مشبكاً من دقيق وزيت طالع خروج ٢٩ : ٢ و٢٧

(٩) الرقاقة تعمل من سميد وزيت طالع خروج ٢٩ : ٣ و٢٣

(١٠) طالع ايضاً اخبار ٦ : ١٤ والفصل الثاني منه . فكل هذه الانواع من الحلواء لا تكاد تخرج من السميذ والزيت او السمن بقليل من الفرق في كيفية اصلاحها فهي تقارب نوعاً لزاقيات العرب والزنكل والتماري عندنا.

(١١) قد اشتهر المصريون بذلك قديماً

الفصل الثاني

في المسكن

١ً مساكن العرب

العرب نوعان سكان الخيم وسكان البيوت المبنية بالحجر او اهل وبر واهل مدَر او حضر[٢] ولم يكن للعرب في بدء امرهم مسكن سوى الخيمة او المغارة الطبيعية[٣] التي يلاقونها في لحوف الجبال والاودية فاذا رحلوا نقلوا خيمهم معهم على ظهر جمالهم وضربوها حيث شاؤوا وحيث يجدون مرعى لابلهم ومواشيهم[٤] ٠

---

(١) جاء في سفر التكوين (٣٣ : ١٧) « ان يعقوب اتى سكوت (الخيات في وادي الغور على نهر الشريعة) فبنى له بيتاً وصنع لماشيته مظلات ولذلك سُمي الموضع سكوت »

(٢) الوبر هو الشعر الـذي منه تُعمل الخيم ٠ والمدر قطعة الطين المتلبد اليابس وبهِ يبنى البيت من الحجر ٠ والحضر هو المدن او القرى

(٣) ذكر الكتاب في سفر التكوين ١٤ : ٦ ان الحوريين كانوا يسكنون في جبلهم سعير (وجبلهم الشراة شرقي بحيرة لوط) والحوريون هؤلاء معروفون بسكان المغر (Troglodytes)

(٤) كذلك كان فعل الرعاة في العهد القديم فقـد قال حزقيا الملك في صلاته الى الرب « قد انقلع مسكني وانتقل عني كخباء الراعي » (اشعيا ٣٨ : ١٢) وكذلك الريكابيون قديماً فقد جاء عنهم في سفر ارميا النبي

وهي اليوم حال كثير منهم ممن يسكنون البادية او ما بين البلاد العامرة بمعزل عن اهل الحضارة والحكومة الا بالقدر القليل . واليك ايها القارئ اللبيب وصف مسكنهم الذي لم يزل منذ ايام جدهم اسماعيل على عهده الاول[1]

بيت الشعر او الخيمة

الخيمة مؤلفة من قطع نسيج متطاولة او تحيكها نساء العرب من شعر المعزى[2] وهي تسمى (شقق) وطول الشقة عادة نحو ٧ اذرع بعرض ذراع واحدة وتضم الواحدة منها الى اختها طولاً الى طول بواسطة قدد طوال تدعى (طرائق) والخيمة الصغيرة مؤلفة عادة من خمس او ست شقق مخيطة على هذه الطريقة . اما خيمة الشيخ فمن عشرة شقق او اكثر . وترفع الخيمة على اعمدة من خشب لها اسماء مختلفة حسب موقعها فالذي في نصف الخيمة يدعى (الواسط) والذي من جهة الشرق يدعى

ان اباهم يوناداب بن ريكاب قال لهم : « لا تبنوا لكم بيتاً ولا تزرعوا زرعاً ولا تغرسوا كرماً ولا يكن لكم من ذلك شيء، بل اسكنوا في الاخبية اياماً كثيرة على وجه الارض التي انتم فيها متغربون » (ارميا ٣٥ : ٧)

(١) يذكر الكتاب (تكوين ٤ : ٢٠) يابل بن لامك اباً لساكني الخيام ومتخذي المواشي

(٢) فهي سوداء اللون ولذلك تقول النفس في سفر النشيد : ١ : ٤ « انا سوداء لكني جميلة يا بنات اورشليم كاخبية قيدار، كسرادق سليمان »

(المقدم) لان الخيمة توجه عادة الى الشرق والذي الى الغرب (المؤخر) وما يكون الى طرف الخيمة من الشمال والجنوب حيث تقع الخيمة الى الارض يدعى (الكاسر)

اما ما ينزل الى الارض من اطراف الخيمة فيسمى (الرفة) في اليمين والشمال والذي في مؤخر الخيمة اي جهة الغرب فيدعى (الرواق) وهذه الاطراف تعلق بالخيمة بواسطة (الخلال) اي اعواد تغرز فيها على شبه الدبابيس وتثبت الاطراف في الارض بواسطة (اوتاد) وعرى من حبال يسمونها (شبح) اما الحبال الكبيرة التي تربط الاعمدة فتسمى (الاطناب) . وتكون الخيمة مفتوحة من الجهة الشرقية الا في اوقات الاهوية والشتاء فتغطى . واذا ابتل الشعر المنسوجة منه الخيمة فيشتد ولا يخرقه ماء المطر بل يسيل الى اليمين والشمال ، ويعمل البدوي خندقاً حول خيمته كي لا يدخلها الماء وهو يضربها في الشتاء لاطيةً بكنف الجبال بنجوة عن الريح الغربية والشمالية

وقد تقسم الخيمة الى قسمين او اكثر على قدر كبرها فيخصص جزء منها للضيوف وآخر للنساء . ويدعى الفاصل بينهما (الساحة) وهو قطعة من منسوج الشعر كالخيمة يُسدل عادة من الشرق الى الغرب . ويدعى قسم النساء او الأسرة (المحرم[1])

---

(١) اذا كان للشيخ نساء متعددة فقد يقسم لكل واحدة منهن محرماً بواسطة السباحات . او يقيم لكل منهنّ خيمة خصوصية كما جاء في سفر التكوين ٢٤ : ٦٧ عن اسحق انه اخذ رفقة زوجته وادخلها خباء امه سارة

وقسم الضيوف (الشقة) . والعرب اذا نزلوا في منبسط من الارض ضربوا خيامهم بنظام حول خيمة الشيخ فهي تكون عادة في صدر المحلة موجهة الى الطريق بحيث يعرفها الطارق ويقصدها للمضافة [١]

بيوت العرب المبنية

عدد عديد من العرب هجروا بيوت الشعر وشرعوا يسكنون بيوت الحجر . وبنوها على غاية البساطة فهي عادة بناية مربعة او مستطيلة مؤلفة من اربعة حيطان وسقف وقد يوجد فيها قنطرة واحدة او اكثر الى الثلاثة او الاربعة بحيث تركب عليها جذوع الشجر او الحجر الاسود المستطيل الذي يسمى الربض [٢] وفوقه القصب او العيدان اذا لم يكن الربض او الخشب متلاصقاً ثم البلان والتراب وتمر عليه المدحاة (المدحلة) فيسوى ويلبد . وهناك ما بين قاعدتي قنطرة واخرى تقام « الكوارة » اي بناية صغيرة لحفظ القمح والشعير وغيرهما من الحبوب او التبن وقد يخزنونها في آبار تحت الارض بالقرب من البيت

ويقسم البيت عادة قسمين : الثلث منه عند الباب للبهائم

---

(١) لما رأى بلعام معسكر اسرائيل في البرية هتف بالنبوة قائلاً : « ما اجمل خيامك يا يعقوب واخبيتك يا اسرائيل ! » (عدد ٢٤ : ٥)

(٢) ذلك في حوران طالع صفحة ١٢

والماشية، والباقي يعلو عنه بدرجتين او ثلاثة لسكنى الاسرة، وقد يرتفع عقد صغير فوق محل البهائم للمنامة ويسمى علية . وقد تكون هذه العلية فوق السطح[١] . وبقرب باب البيت تقام بناية صغيرة للطبخ وفيها تصنع القهوة في ايام الصيف

ومن عهد قريب اخذ بعض العرب الموسرين الذي قدم عهدهم في الحضارة يستدعون البناة الماهرين فيبنون لهم البيوت الكبيرة المزخرفة وفيها بعض الهندسة ويعملون لها النوافذ يركب فيها الخشب والزجاج على طرز بيوت المدن الكبيرة[٢]

---

(١) طالع سفر الملوك ٢ فصل ١٨ : ٣٣ ـ وسفر يهوديت ٨ : ٥ ـ والقضاة ٣ : ٢٠ ونظير علية ايليا عند المرأة الارملة ٣ ملوك ١٧ : ١٩

(٢) لما دخل بنو اسرائيل ارض الميعاد استوطنوا المدن والقرى التي اخذوها من سكانها فقد جاء في تثنية الاشتراع ٦ : ١٠ « اذا ادخلك الرب الهك الارض التي اقسم لآبائك ان يعطيها لك مدناً عظيمة حسنة لم تبنها وبيوتاً مملوءة كل خير لم تملأها وصهاريج محفورة لم تحفرها . . فاحذر ان تنسى الرب . . . » ولما تبسط الاسرائيليون في الحضارة والغنى بنوا لهم البيوت الفخيمة والقصور الشاهقة (طالع ارميا ٢٢ : ١٤ واشعيا ٩ : ١٠) وجعلوا امامها الساحة الواسعة (ارميا ٣٢ : ٢ ومرقص ١٤ : ٥٤) يسورها حائط مانع ويُدخل اليها ببوابة كبيرة عليها الحجاب والبوابون (يوحنا ١٨ : ١٦) وتوصد الابواب بالمزلاج والقفل والمغلاق (طالع نشيد ٥ : ٥ ونحميا ٣ : ٣) وقد اعدوا ضمن بيوتهم الحمام (٢ ملوك ١١ : ٢) والجنائن وكان لبعضهم بيوت صيفية وبيوت شتوية (عاموس ٣ : ١٥) وفي الثانية كوانين للنار (ارميا ٣٦ : ٢٢) . وقد ذكر الكتاب بيت سليمان ووصفه

٢ً اواني البيت واثاثه

تقتصر هذه الاثاث والاواني في بيوت العرب على ابسطها واكثر ما يحتاج اليهِ الانسان في مأكلهِ ومشربه وراحته . فعندهم البساط من الشعر واللباد من الصوف والسجاد العجمي ثم الارائك والوسائد والمخدات[١] ثم الفرش والمحف[٢] والولنسة بمثابة لحاف من الصوف نظير البساط[٣] ثم اواني القهوة وهي

احسن وصف على جماله وغناه طالع سفر الملوك الثالث الفصل السابع . اما بيت الله الكريم الذي اتقن سليمان صنعه وبالغ في زينته فقد جاء تحفة من تحف الدهر بل آية من آيات الزمان

(١) كذلك عند اليهود قديماً طالع سفر حزقيال ١٣ : ١٨

(٢) اما الاسرّة فغير معروفة عند العرب الرحلة والساكنة فهم يفرشون على الارض اما المترفون من ساكني المدن فقد اخذوا يعتلون الاسرّة الحديدية المغشاة بالكلل والحرائر . اما اليهود قديماً فكان عندهم السرير (طالع تكوين ٤٨ : ٢ وايوب ٧ : ١٣ والنبي داود في سفر المزامير حيث يقول ٦ : ٧ « في كل ليلة اغمر سريري بدموعي ») واذا اردت ان تعرف جملة ما يكون في غرفة النوم عند اليهود فطالع ٤ ملوك ٤ : ١٠ فتجد وصف الحجرة التي اعدتها المرأة الشونمية لاليشاع النبي

(٣) لا تجد عند العرب مقاعد ولا كراسي ولا دواوين مثل التي تراها اليوم في المدن العربية . على ان اليهود قديماً كانوا يجلسون عليها في بيوتهم ولاسيما ازاء مائدة الطعام طالع حزقيال ٢٣ : ٤١ . وعاموس ٣: ١٢ وفي ٦ : ٤ يقول : « وتضجعون على اسرة من عاج وتتبسطون على حجالكم

المحماصة والمغرفة لتحريك البن عند تحميصه ثم الجرن او المهباج والمدقة لسحقه ثم الدلة او البكرج او الركوة لطبخ القهوة والفناجين والصينية لتقديمها . اما اواني الطعام فهي القدر من الفخار او النحاس[1] والمعجن والمخمر نظير المعجن والطاسة والسحلة (اي طاسة صغيرة) والصحن واللكن وهو القصعة الواسعة فيها يقدم الطعام للضيوف ونظيره الكرمية والباطية والهتائس والهنابة وهي صحف من خشب في الغالب والمسواط وهو قضيب لتحريك الطعام في القدر . والغرافة او المغرافة او بنت القدر وهي من خشب لصبه . والطافور او الكعد وهو صحن صغير من خشب يكون له عادة مسكة لصب السمنة . والصينية

وتاكلون الحملان من الغنم والعجول من وسط المعلف » . وجاء في نشيد الاناشيد ٣ : ٩ « ان الملك سليمان صنع لنفسه تختاً من ارز لبنان » . وكان اليهود قديماً يترفهون في مضجعهم ترفهاً بليغاً بدليل ما جاء في سفر الامثال ٧ : ١٦ « وقد فرشت سريري مفروشات من الديباج نسيجها من مصر وعطرت مضجعي بالمر والعود والدارصيني »

(١) كذلك اليهود عندهم القدر طالع عدد ١١ : ٨ وآنية من خزف طالع سفر الاحبار ١١ : ٣٣ فاذا تنجست يكسرونها وآنية من حديد او نحاس او معدن آخر فاذا تلوثت بنجس يطهرونها بالنار او بالماء السخن طالع عدد ٣١ : ٢٢ وحزقيال ٢٤ : ١١ ومن جملة آنيتهم للطبخ « الطاجن » كما ترى في سفر الاحبار ٦ : ٢١ والمرجل طالع ٢ اخبار الايام ٣٥ : ١٣ ثم المجارف والمناشل والمجامر كلها لاخذ النار وكانت من نحاس او حديد طالع سفر الخروج ٣٨ : ٣

من قش والخواشيق (ج . خاشوقة) وهي الملاعق والشوك عند من يعرف الشوك من العرب . وعندهم ايضاً السكين لذبح الشاة او غيرها ولقطع اللحم[1] . والسفرة وعاء من جلد لوضع الطعـام

ثم يوجد عند العرب (المعنقة) وهو العدل الكبير من الشعر منقش بالوان مختلفة فيـه توضع الاثواب والملابس و (المبيد) مثله والقربة من الجلد للماء والسمن والباطية والجرة والخابية ثم الشكوة وهي الوعاء من الجلد لحفظ اللبن (والخريطة) لتصفية اللبن وهي من صوف (والجاروش) رحى اليد لجرش البرغل او طحن القمح[2] ثم الصاج من الحديد لصنع الخبز . وبعض العرب الساكنين القرى يستعملون (الطابون) للخبز وهو نظير التنور[3] اي حفرة صغيرة تحمى ثم يوضع فيها الخبز وتغطى بالجمر او الجلة المتوقدة[4] . هذه على الاجمال مع احداج

---

(١) كان اليهود يستعملون الظران قديماً وهي حجارة الصوان الرهيفة الحادة كالسكين طالع سفر يشوع ٥ : ٢ . ثم اقتنوا السكاكين واستعملوها بدل الظران طالع التكوين ٢٢ : ٦ و١٠ والقضاة ١٩ : ٢٩ والامثال ٣٠ : ١٤

(٢) وقد جاء ذكر هذه الطاحون اليدوية في سفر الخروج ١١ : ٥ والعدد ١١ : ٨ والجامعة ١٢ : ٤ والتثنية ٢٤ : ٦ واشعيا ٤٧ : ٢ وانجيل القديس متى ٢٤ : ٤١

(٣) وكان اليهود يستعملون لخبزهم وطبخهم التنور والموقدة او المستوقد طالع احبار ١١ : ٣٥

(٤) وهي خثي البهائم مجبولاً اقراصاً ومبيساً بالشمس

الحمير والابل وعدة الخيل كل ما ترى تقريباً في بيت العربي من مرافق الحضارة وادوات المعيشة

اما نورهم في البيت او الخيمة فكان قديماً النار الملتهبة في « النقرة[١] » لا غير على انهم قد طفقوا من عهد قريب يستعملون زيت الغاز او البترول بالمصابيح الصغيرة المعروفة في بلادنا . ولم يزل عند بعضهم سرُج صغيرة تشعل بالزيت الحلو او زيت الغاز[٢]

الفصل الثالث

في اللباس

١ً لباس العرب

كل شيء عند العرب لم يزل على عهد البساطة او الفطرة

---

(١) راجع صفحة ١٢

(٢) كان اليهود يستعملون « المنارة » وهي شمعدان من نحاس او معدن آخر يحمل مصابيح عديدة تشعل بالزيت الحلو وعندهم «المصابيح او السرُج» الصغيرة من فخار او معدن ثمين وعليها التصاوير المتنوعة كما نراها اليوم فيما نجده من آثارهم (طالع خروج ٢٥ : ٦) وكانوا يضعون السراج على المنارة في وسط البيت ليضيء لكل من فيه (طالع انجيل القديس متى ٥ : ١٥)

الاصلية[1] . فقد رايت مساكنهم من خباء او بناء وما فيها من آنية او اثاث مما يُعد مسكنةً بل عدماً في جنب احقر بيت من احدى مدننا الحديثة

اما لباسهم او زيهم سواء كان في الرجال او النساء فانه على جانب من الفخامة والجلال والذوق الطبيعي بيد انه في غاية البساطة ايضاً. فهو عند الرجال اولاً سربال او ثوب ابيض وقد يصبغ ازرق ويكون من كتان او قطن[2] ويصل حتى الركب

---

(١) في البدء لما راى ادم ذاته عرياناً بعد ان اقترف الخطية خاط لنفسه ثوباً من ورق التين ولامرأته حواء . اما الله فقد صنع لهما اقمصة من جلد وكساها (طالع سفر التكوين ف ٣) . ومن بعد ذلك اخذ الانسان يجز صوف الغنم وينسج منها اثواباً (طالع تكوين ٣٨ : ١٣) ثم زرع الكتان والقطن وصنع من نسيجها اثواباً (طالع يشوع ٢ : ٦) . اما الحرير فلم يأتِ الا بعد ذلك بزمان (طالع اخبار الايام ٤ : ٢١ وحزقيال ١٦ : ١٠) وكان محظوراً على اليهود الجمع ما بين القطن والصوف في الثوب الواحد (تثنية الاشتراع ٢٢ : ١١)

(٢) هو ثوب اليهود الاعتيادي المعروف عندهم قديماً باسم « الثوب او اللباس » (طالع ٤ ملوك ١٠ : ٢٢ واشعيا ٥٩ : ١٧) وهو يكون عادة ابيض او ازرق او احمر كما تراه في صور السيد المسيح . على ان صاحب كتاب الجامعة يحرض على اللباس الابيض (جامعة ٩ : ٨) وهو من صوف او كتان او حرير (طالع حزقيال ١٦ واستير ٨ : ١٥)

او اسفل منها بقليل[١] ترمه عند الخاصرة منطقة من جلد[٢] او زنار من صوف تنسجه البدويات وله شراريب مسترسلة . وقد اخذ بعض العرب المستحدثين يتمنطقون بالكمر المعروف في بلادنا . وذاك الثوب يقوم عادة عند البدو مقام القميص او يلبس فوقه[٣] وقد يكون هذا القميص مطرزًا وموشى بخيط مختلف الالوان من صوف او حرير ولاسيما عند الصدر او على

---

(١) كان اليهود يلبسون القميص او الثوب قصيرًا الى الركب نظير العرب وفوقه الرداء . بيد انهم فيما بعد اخذوا يأتسون بالامم الغريبة كالرومانيين والكلدانيين . فلبسوا الاثواب الضافية الذيل ذات الاهداب والاردان الطويلة والطيات المتوازية فوبخهم عليها الرب بفم صوفنيا النبي قائلًا : « وافتقد كل لابس لباساً غريباً » (طالع صوفنيا ١ : ٨)

(٢) كان يوحنا المعمدان يتمنطق بمنطقة من جلد (مرقص ١ : ٦) وكذلك ايليا التشبي (٤ ملوك ١ : ٨) وقد يكون الزنار من غير جلد (طالع امثال ٣١ : ٢٤ و٢ ملوك ٢٠ : ٨ واشعيا ٥ : ٧)

(٣) كان اليهود قديماً يلبسون نظير العرب من قميص وثوب ورداء طالع في ذلك وصف لباس رئيس الكهنة في سفر الاحبار ١٦ : ٤ وقد وعد شمشون الذين يحلون لغزه ثلاثين قميصاً وثلاثين حلة (قضاة ١٤ : ١٢ واشعيا ٣ : ٢٣) وقد يكون ثوبهم من بز او حرير ورداؤهم من ارجوان مثل الثوب الذي البسه فرعون ليوسف لما اقامه على جميع ارض مصر (تكوين ٤١ : ٤٢ والمراثي ٤ : ٥ واستير ٨ : ١٥) وقد امر الرب بني اسرائيل ان يجعلوا لاذيال ثيابهم اهداباً وعليها سلك سمنجوني لكي يتذكروا وصايا الرب (طالع عدد ١٥ : ٣٧ وتثنية ٢٢ : ١٢)

دائر الرقبة[1] وله ردنان طويلان يعقدان بطرفيهما ويرميان على الكتفين . وفوق القميص يلبس الاعرابي « دامراً » او ساكوّا صغيراً وفي الشتاء فروة كبيرة او صغيرة . وفوق الجميع « العباءة » من صوف او حرير وتطرز احياناً بخيط النحاس او الفضة لاجل المشايخ والاغنياء[2] اما عند عامة العرب فمن صوف او وبر الابل وبها يلتحفون عند منامهم ويتقون البرد والمطر في ايام الشتاء[3] . وعلى الراس « كوفية » من حرير او صوف او كتان سوداء او بيضاء يعقد فوقها « العقال » الضخم (او المرير) من وبر الابل او من صوف الغنم وقد يكون ايضاً من خيط الحرير ومن الفضة[4] . واذا اراد العربي ان يتنكر فانه يلتثم بالكوفية

---

(١) هكذا كان قميص يوسف بن يعقوب . لذلك حسده عليه اخوته واضمروا له سوءًا (طالع تكوين ٣٧ : ٣ وحزقيال ١٦ : ١٨)

(٢) كان اليهود يلبسون الرداء نظير العباءة فوق ثوبهم وهو الرداء الذي طلبه بولس من تيموتاوس ان يأتيه به (٢ تيمو ٤ : ١٣) وتركه يوسف بيد امرأة فوطيفار (تكوين ٣٩ : ١٢ طالع ايضاً اشعيا ٥٩ : ١٧ و٦١ : ١٠ و١ ملوك ١٨ : ٤) وقد يكون هذا الرداء عندهم من بز او حرير نظير الثوب . وقد يكون ايضاً من شعر مثل رداء ايليا النبي الذي اسقطه من مركبته على اليشع وهو عادة رداء الانبياء (طالع ٤ ملوك ١ : ٨ وزكريا ١٣ : ٤)

(٣) كذلك كان اليهود يتغطون بردائهم . لذلك حرم الرب ان يمسكه الدائن على مديونه ليلاً (طالع سفر الخروج ٢٢ : ٢٦)

(٤) اما اليهود فكانوا يعتمون بعمامة بيضاء شبيهة بالكوفية (خروج

على شواربه وانفه فلا يبين منه سوى العينين[١] . واما الرجلان فتلبثان عاريتين دون جوارب وهما تطأان نعـلاً بسيطاً يعلق بالرجل بشرك او سيور[٢] . على ان الحذاء الاعتيادي عند عرب سوريا فهو «الجزمة» الحمراء او الصفراء وقليلاً ما تكون سوداء وفي طرفها الاعلى طرة زرقاء وهم يخلعونها اذا ما دخلوا البيت للجلوس[٣] . على ان معظم عرب البادية يمشون حفاة الرجلين[٤] حتى لقد تمسي ارجلهم قاسية الاديم بحيث لا توثر فيها حصاة الطرق ولا لسعات الحيات او العقارب وقد حدثني احدهم عن بدوي انه كان نائماً ذات ليلة في البادية ما بين غنمه وجماعة من اصحابه فشعر بلسعة قوية في ابهام رجله ثم سمع ثغاء جديين فنهض للحال واذا بحية كبيرة تنساب ما بين القطيع فهي التي لسعته والجديين ايضاً عـلى ان هذين وقعا في الحال ميتين من

---

٢٨ : ٤ او مثل التاج فوق الراس (طالع ايوب ٢٩ : ١٢ واستير ٨ : ١٥) وهذه العمامة معروفة ايضاً عند البابليين (طالع حزقيال ٢٣ : ١٥)

(١) كذلك كان يفعل اليهود احياناً ولاسيما في اوان الحزن (طالع حزقيال ٢٤ : ١٧)

(٢) هكذا كان حذاء اليهود قديماً (تكوين ١٤ : ٢٣)

(٣) ان الرب امر موسى بخلع نعليه من رجليه لما وطئ الجبل المقدس حيث تجلى له الرب في العليقة (سفر الخروج ٣ : ٥ واشعيا ٥ : ٢٧)

(٤) نظير الفقراء والحزان من اليهود قديماً . لذلك صعد داود النبي جبل الزيتون حافياً وباكياً اذ هرب من وجه ابيشالوم ابنه المتمرد (طالع ٢ ملوك ١٥ : ١٧ واشعيا ٢٠ : ٢)

نفث السم اما الاعرابي فلم ينله اذى

هذا بالاجمال لبس عرب البادية اما سكان القرى والمدن منهم فقد طفقوا يتقربون الشيء بعد الشيء من القديمي العهد في الحضارة واخذوا يلبسون القميص والسروال[1] والقنباز من جوخ او حرير ثم الساكو الكبير والعباءة المزركشة. ثم ما عتم ان شرع البعض منهم يستبدل الكوفية بالطربوش والجزمة بالكندرة حتى الثوب بالبنطلون . وهؤلاء هم الذين نزحوا الى البلاد الاميركية او آبوا منها متمدنين او الذين انخرطوا في سلك موظفي الحكومة او هجروا البادية الى المدن العامرة

٢ً حلي الرجال وزينتهم

لم يكن للعرب حلي سوى سلاحهم الذي سوف نتكلم عنه. بيد انهم قد اخذوا من عهد قريب يلبسون الخواتم الفضية والذهبية وبعضها يكون مرصعاً بالحجارة الكريمة وانما في الاصل كان الخاتم قطعة من حديد او نحاس او معدن اخر ينقش عليه اسم صاحبه لتوقيعه على الرسائل والعرائض . ثم صار بعد ذلك اداة للزينة يوضع في احدى الاصابع[2]

(١) عند اليهود قديماً لم يكن يلبس السروال سوى رئيس الكهنة عند خدمته في الهيكل فقط وعن امر منه تعالى (طالع سفر الخروج ٢٨ : ٤٢)

(٢) كذلك كان الخاتم قديماً عند الاسرائيليين قطعة من معدن ثمين او

وطفق اليوم بعض العرب من اهل البادية وعدد كبير من سكان المدن يحملون الساعات فيعلقونها في العنق بخيط مبروم من حرير او على الصدر بسلسلة من معدن ثمين

اما العصا التي يحملها بعض الاعراب بايديهم او على كتفيهم فيعلقون عليها ايديهم فليست هي للزينة كما امست اليوم عند كثير من شبان العصر . وانما هي مسند للجسم في السير والوقوف وآلة للدفاع عند اقتضاء الحاجة[1] وهي لا بد منها للراعي ليهش بها على غنمه ويدفع عنها الحيوان المفترس[2]

حقير يحفر عليها اسم الرجل او شكل من اشكال الطيور او الحيوانات او علامة اخرى مما يشير الى صاحبها ويختص به . (طالع في ذلك سفر الخروج ٢٨ : ١١) فيختمون الكتب والرسائل (٣ملوك ٢١ : ٨ وايوب ١٤ : ١٧) والابواب (طالع دانيال ١٤ : ١٣) وقد يكون هذا الخاتم من طين او خزف (ايوب ٣٨ : ١٤) وكانوا يضعون هذا الخاتم في اليد كما البس فرعون يوسف خاتمه الذي نزعه من يده (خروج ٤١ : ٤٢ وطالع ارميا ٢٢ : ٢٤ واستير ٣ : ١٠ و٨ : ٢) او يعلقونه بخيط في الرقبة

(١) كان اليهود يحملون العصي نظير الاعراب (تكوين ٣٢ : ١٠) وبها موسى صنع الايات بامر الله تعالى فحولها الى حية امام فرعون (خروج ٤) وشق بها الصخرة فانفجرت ماء (خروج ١٧ : ٦) ـ ولعل البعض كانوا يزينون عصاهم بشيء من المعادن كما هي العادة اليوم فتصبح هذه العصا ذات ثمن ويعرف بها صاحبها نظير عصا يهوذا التي اودعها رهناً عند ثامار البغي (تكوين ٣٨ : ١٨) عصا هارون وربيعة

(٢) طالع رواية داود (١ ملوك ف ١٧) حيث قتل داود الدب

واما اذا اراد البدوي ان يتبرج ويتزين ايام الاعياد وفي الاعراس فانه يضفر شعره فوق صدغيهِ ويسبل جدائله على خديه ورقبته ويتمنطق بزنار من صوف مختلف الالوان له عذبات وشراريب تسترسل على ثوبه من امام وقد رايت بعض الاعراب يضع حلقة من فضة او معدن ابيض في عقاله عند طرفه او قرطاً صغيراً في الاذنين[1]

اما الشعر عند الرجال فكان يستحسن في اللحية والشوارب على انهم قلما يتركون الشعر يطول بل يخففونه قليلاً ويحلقون عادة شعر راسهم الا الشبان وبعض الرجال فيحبونه طويلاً ليضفروه جدائل كما رايت[2]

والاسد اذ كان راعياً وتقدم بعصاه ومقلاعه ليقتل جليات الجبار

(١) كانت هذه العادة من حمل الاقراط جارية عند الاسماعيليين قديماً طالع (قضاة ٨ : ٢٤) وعند ابناء الاسرائيليين (طالع خروج ٣٢ : ٢) وكان الملوك والاغنياء من بني اسرائيل يلبسون ايضاً اساورة في سواعدهم وسلسلة او طوق ذهب في عنقهم (طالع ٢ ملوك ١ : ١٠ ودانيال ٥: ٧)

(٢) كان اليهود قديماً يعتنون بتربية شعرهم ويرسلون منه خصلاً على اكتافهم واصداغهم (طالع عدد ٦: ٥ وحزقيال ٤٤ : ٢٠ وقضاة ١٦: ١٣) ويعيّرون الاقرع والاصلع والاجلح كما فعل الاولاد باليشع النبي (طالع ٤ ملوك ٢ : ٢٣) اما الشبان فكانوا يحبون الشعر الطويل وقد ذكر الكتاب عن ابيشالوم « انه كان يحلق شعره في اخر كل سنة فيكون وزنه متتي مثقال بمثقال الملك » (٢ ملوك ١٤ : ٢٦) وقد وصف صاحب النشيد

واذا ارادوا ان يذلوا اسيراً او يقاصوا مذنباً او يثأروا من عدو او قاتل فانهم يحلقون شواربه او جانباً من لحيته او لمة شعره او يجزون ناصيته ثم يطلقوا سبيله فيرجع الى اهله ويختبئ مدة ريثما يرجع اليه شعره ويزول عاره (١)

والعرب عند الالتقاء بعد الغيبوبة يقبلون بعضهم لحي بعض دلالة على المودة والشوق الى رؤيتهم (٢) . واما الاحداث فيقبلون رؤوسهم او خدودهم

وكان اليهود يقبلون بعضهم بعضاً على الفم كما فعل يهوذا بيسوع على ما قاله فم الذهب

ويستعمل بعض العرب الكحل في العينين للزينة والتبرج لاسيما يوم العرس وفي الاعياد والافراح . لانهم يحبون سواد العيون . لذا الحوراء عندهم هي موسومة بالجمال والحور زينة

شعر الحبيب قائلاً « وغدائره كسعف النخل حالكة كالغراب » (٥ : ١١)
ـ اما الشوارب فيظهر انهم كانوا يحفونها تزيناً (طالع ٢ ملوك ١٩ : ١٤) وقد منعهم الرب ان يحلقوا راسهم حلقاً مستديراً كما يفعل العربان قديماً تكريماً لالهتهم (راجع هيرودوتس ٣ : ٧) وان يحفوا عوارضهم (طالع احبار ١٩ : ٢٧) ولذا نرى بعض اليهود الى اليوم يسبلون عوارض شعرهم على صدغيهم وخدودهم اما لحيهم فكانوا يتركونها قديماً . وحلقها علامة الحزن والامتهان (طالع ارميا ٤١ : ٥)

(١) كما فعل ملك عمون برسل داود (طالع ٢ ملوك ١٠ : ٤)

(٢) كذلك فعل يواب لما غدر بعماسا قائد داود (طالع ٢ ملوك ٢٠ : ٩)

الجنة على ما جاء في القرآن[1]

ولا يستنكفون من التشبه بالنساء احياناً بصبغ ايديهم وارجلهم بالحناء يوم العرس ايضاً[2] . كما سترى في حفلة الاعراس وقد يدهنون شعرهم بزيت الزيتون او ببعض الاطياب التي تاتيهم من الحجاز او من الشام[3]

٣ً ملابس السيد المسيح

لا شك ان قراءنا بعد اطلاعهم على ملابس العرب وما بينها وبين ازياء اليهود القديمة من المشابهة يميلون بذاكرتهم الى السيد له المجد ويودون ان يتمثلوه في زيه ولباسه الحقيقي . فها نحن نصف لهم زيه باقرب ما يمكن من الحقيقة استناداً الى ما نعرفهُ من ازياء اليهود على عهده وما وصفه به المؤرخون الاقدمون

كان السيد المسيح يلبس ثوباً من كتان ابيض[4] ومن تحته

---

(١) الكحل معروف ايضاً في العهد القديم لزينة العينين (طالع ٤ ملوك ٩ : ٣٠ وارميا ٤ : ٣٠)

(٢) وهذا ايضاً كان معروف عند اليهود قديماً ويدعى الفاغية اي زهرة الحناء (طالع النشيد ١ : ١٣ و٤ : ١٣)

(٣) الاطياب والادهان مستعملة كثيراً عند اليهود قديماً وحديثاً (طالع عاموس ٦ : ٦ والانجيل متى ٦ : ١٧)

(٤) ولم يكن ثوباً ناعماً لانه قال : ان الذين يلبسون اللباس الناعم هم

القميص الذي قد نسجته لـه امه الكريمة وكان غير مخيط وعليه اقترع الجند عند موته كي لا يقسموه (يوحنا ١٩: ٢٤) وله اطراف واهداب وهو الذي لمسته النازفة الدم فشفيت من مرضها (لوقا ٨ : ٤٣) والراجح انه كان ازرق او سمنجونياً نظير ثوب سائر اليهود وقد ابيض ساطعاً لما تجلى على طور ثابور (متى ١٧ : ٢) وكان على رأسه منديل او « كوفية » بيضاء يشدها عقال نظير الاعراب[1] وتسبل اطرافه على عنقه وكتفيه ويربط بشريط عند الرقبة . امـا رجلاه فكانتا تحتذيان نعلاً مربوطاً بسيور حسب قول يوحنا المعمدان « اني لست مستحقاً ان احل سيور حذائه » (لوقا ٣ : ١٦) وكان يتمنطق بزنار من جلد ويحمل بيده عصاً فيتجول مـا بين المدن والقرى في الجليل واليهودية مبشراً بالخلاص

٤ً زي النساء البدويات

ليس عند بنات البادية تلك الازياء المتنوعة ولا تلـك التقلبات المترادفة مما يدعونهُ « بالموضة » عند بنات العصر فان لباسهن لم يكد يتغير منذ عهد امهم هاجر التي لجأت مع ابنها اسماعيل الى البرية

في بيوت الملوك (متى ١١ : ٨)

(١) طالع كتاب رحلة الفيلسوف الروماني للمطران جرمانوس معقـد صفحة ٣١ (متى ١١ : ٨)

فهو ثوب طويل ضاف واسع الاردان جليل الهيئة ازرق اللون او اسوده مسترسل الى الاقدام حتى يجرّ على الارض ذيلًا وصفه الشاعر قائلًا :

هل رأيتم كغادتي اذ اتت تسحب الردا
تدخل اليوم ثم تـد خل اذيالها ... غدا

وعند عرب البلقاء يزيد طوله على قامة الامرأة بضعة اذرع فترفعه على خاصرتها بزنار من الصوف الاحمر المنسوج بيدها . ثم تسبل ما يزيد منه فوق الزنار الى الركب او الى الاقدام . ومادته من الخام الازرق او الكرمسود الاسود . وقد يزينه على ذيله كنار احمر او اصفر او نقط بيضاء . ويقوم هـذا الثوب مقام القميص عادةً . وله ردنان طويلان تعقدهما الامرأة بطرفيهما وترسلهما فوق كتفيها فتحسر بذلك عن ساعديها حتى ابطها لاجل الشغل لا للتبرج او الاغواء

وتلبس فوق الثوب في الشتاء او الاعياد نوعاً من الساكو كبيرًا يدعى « فرملية » يكون عادة من جوخ اسود او ازرق وقد يزينه تطريز من خيط الحرير المختلف اللون او من الفضة ثم فوق الجميع « الكبر » وهو بمثابة عباءة واسعة

وتغطي رأسها بمنديل مسبل على ظهرها يدعى « الشنبر » يكون من قطن او حرير اسود او احمر وهي تتلفح بـه وتترك طرفه مسدولاً من تحت الساكو . وتعصب فوقه على

رأسها عصابة من منديل بسيط اسود او كوفية حريرية مطرزة بخيط الفضة . وتحتذي اذا شاءت جزمة قصيرة صفراء او حمراء تُدعى « دبورة » . وقد اخذ بعض العربيات التي اوت الى المدن او القرى يحتذين بالكندرة او البوتين بيد انهما اقل نحافة من سكربينة غادة العصر . على ان معظم بنات البادية يمشين حافيات عاريات الارجل

٥ حلي الامرأة البدوية

ان زينة البدوية وحليها في الغالب هما خفارتها وبساطتها . اما النساء العربيات اللواتي اوين الى المدن والقرى نظير نساء حوران والبلقاء وبعض بادية سوريا فهذه حليها التي تتبرج بها ولاسيما يوم الزفاف هي :

١ً « الاساور » وتكون عادة من فضة مصممة ومطروقة وعليها بعض نقوش بسيطة وهي انواع . منها « المكويج » « وقبور اليهود » « والسليتات » وهذه تكون من فضة او ذهب جميلة الصنعة وغالية الثمن

٢ً « والخلخال » الذي يوضع في الرجل وهو من فضة او ذهب او نحاس اضخم من الاساور واقل منها صنعة وقد يزن الواحد منه نحواً من نصف اقة : على ان عادة لبس الخلخال قد اخذت تنتسخ لاسيا عند المسيحيات حتى لا تكاد تجدها

بينهن الا نادراً

٣ً « الحلق » او الاقراط وتكون عادة من ذهب او فضة ويتعلق باطرافها قطع صغيرة من المعدن عينه . وقد يقوم مقام القرط سلسلة من فضة او ذهب يناط بها الاخراص وتعلق على الرأس فوق الآذان

٤ً ومثلها « الشكة » وهي عقد من سلك تنظم فيه نقود ذهبية او فضية تشبه النقود الحالية او القديمة وهي انواع منها « الغازيات » او الغوازي ودعيت كذلك لان نقودها تمثل السلاطين الغزاة . « والمشاخص » اي نقود مرسوم عليها تماثيل اشخاص غريبة وهذه تدعى ايضاً « ابا لوزة » ولعل هذا الاسم لصانعها او بائعها الاول . ثم « الجهادي » اي نقود السلطان محمود المجاهد . وهذه الشكة توضع على رأس المرأة وتعقد على قفا رقبتها وتسدل النقود على الجبين فوق المنديل . وقد رأيت بعض العربيات يحفظنها دائماً على رأسهن حتى في نومهن خشية عليها من السرقة . والبعض منهن يعقدن شيئاً من هذه الحلى على اطراف جدائل شعرهن المسدول على الاكتاف او الظهر . فان للشعر عندهن مقاماً كبيراً على حد سائر النساء عند جميع الامم[1]

---

(١) ان بعض نساء العرب يغسلن شعرهن ببول البقر او الجمال او غيرها من الحيوان كي يصبح لماعاً واشقر اللون ولا يسقط !

٥ً ولا تنسَ « الطوق » الذي يحلي العنق بالذهب والفضة او اللآلئ[١]

٦ً ومن انواع الحلى ايضاً « الزميم » وهو خرص من ذهب او فضة او نحاس يناط بخيشم الانف على ان هذه العادة لم تبقَ الا عند ساكنات الخيم

٧ً ثم اخيرًا « الحياصة » وهي زنار عريض من سلاسل الفضة اللطيفة الصنعة يناط به عند العقد عدة سلاسل صغيرة في اطرافها نقود او اجراس صغيرة . وهذه الحلية قد اخذت تنتسخ ايضاً

٦ً زي نساء اليهود قديماً

كانت نساء اليهود قديماً يلبسن قميصاً طويلاً نظير الرجال بيد انه كان اطول منه واوسع ومن نسيج ناعم (طالع نشيد ٥ : ٣ واشعيا ٣ : ٢٣) وفوقه الثوب او اللباس الظاهر . ويعقد على الخاصرة بزنار من نسيج الصوف او الكتان . وقد يكون من قطن او حرير ويلتفّ حول الخاصرة عدة مرات . وهو آلة زينة وحلي عندهن حسب قول ارميا (٢ : ٣٢) « اتنسى العذراء حليتها والعروس مناطقها ؟ اما شعبي فقد نسبني اياماً لا تحصى »

---

(١) كان الرجال عند الامم قديماً يلبسون الطوق زينة (طالع تكوين ٤١ : ٤٢)

اما لون القميص فكان على الغالب ابيض نظير قميص البدويات، اذا لبسن قميصاً . اما الرداء فكان احمر قرمزياً . بدليل ما جاء في رثاء داود لشاول : « يا بنات اسرائيل ابكين على شاول الذي كان يُلبسكن القرمز ويرّصع لباسكن بحلي الذهب » (طالع ٢ ملوك ١ : ٢٤).

وكانت اليهوديات يلبسن ايضاً الرداء فوق الثوب وكان ضافياً واسعاً نظير عباءة العرب حتى لقد يسع الواحد منه ستة اكيال من شعير بدليل ما جاء في سفر راعوت ٣ : ١٥ اذ قال لها بوعز : « هاتي الرداء الذي عليك واثنيه فثنته فكال لها فيه ستة اكيال شعير وجعلها عليها »

وقد يكون هذا الرداء عند المثريات ناعماً جداً ورفيع الثمن ومزخرفاً وموشى بالذهب والفضة (طالع قضاة ٥ : ٣ والمزامير ٤٤ : ١٤) حيث يقول : « بنت الملك . . لبوسها من نسيج الذهب تُزَفّ الى الملك في رياش موشاة » . وكن يزينه في ذيله نظير البدويات بالوان مختلفة (طالع حزقيال ١٦ : ١٠)

اما عصبتهن فكانت قديماً على الراجح نظير نساء الشرق في ايامنا هذه فانه كان عندهن النقاب والخمار (طالع نشيد ٤ : ١ واشعيا ٤٧ : ٢ وتكوين ٣٨ : ١٤) والعصابة (طالع اشعيا ١٣ : ١٨) فيسترن رأسهن بمنديل على طريقة النساء

الشرقيات غير « المتفرنجات » واذا اردنا التبرج فيرفعن على رؤوسهن تاجاً من الخرائز وعليه قطع رقيقة من الذهب والفضة منه يتدلى قدنان ومن الحرير على الاكتاف والصدر . ولعل التاج الذي لبسته يهوديت لما واجهت اليفانا والذي وضعه احشورش الملك على رأس استير كانا من هذا النوع (طالع يهوديت ١٠ : ٣ واستير ٢ : ١٧)

وكان حذاء اليهوديات النعل يربطنه بسيور من جلد نظير حذاء الرجال بيد انه انعم منه والين . وكان من لون سمنجوني وتزينه اهداب وخلاخل او قطع من معدن صغيرة تخشخش عند مشي المرأة (طالع حزقيال ١٦)

قد وصف الرب بفم حزقيال النبي حلي المرأة قديماً بكمالها قال : (ف ١٦ : ١٠) « والبستك وشياً ونعلتك بجلد سمنجوني وحزمتك بالبز وكسوتك بالحرير وحليتك بالحلي وجعلت اسورة في يديك وطوقاً في عنقك وجعلت خرصاً في انفك وقرطين في اذنيك واكليل فخر على رأسك فتحليت بالذهب والفضة وكان ملبوسك البز والحرير والوشي » (وطالع ايضاً اشعيا ٣ : ١٦ ـ ٢٣)

***

هذا ما نعرفه من انواع الحلي وآلات البهرجة عند نساء العرب

واليهود قديماً . ولا شك انها سحيقة العهد وان اكثرهـا كما رايت سار الى الاضمحلال

واما ما حفظته المرأة البدوية لزينتها وحرصت عليه فهو بساطتها وصيانة ماء وجهها وترفع آدابها عن عادات مستهجنة وبهرجة كاذبة اخترعتها حضارة فاسدة

الفصل الرابع

في الزواج

١ الزواج عند العرب

شريعة الزواج سائدة عموماً في احياء العرب من اهـل الحضر والمدر فلا يكاد يخرج عنها احد الا عن عجز او عدم مقدرة في دفع المهر الضروري لاقتناء الزوج . فلا يبلغ الفتى اشده حتى يكون قد اتخذ لهُ قرينة لحياته تساعده في اشغاله وتقوم بحاجات بيته . اما العزوبة فمكروهة عندهم والبتولية غير معروفة الا عند المسيحيين . بيد ان العرض محفوظ والآداب سالمة على وجه الاجمال عند عرب البادية . والسبب في ذلك

التعجيل في التأهل وشدة العقاب الذي يقع على التي تثلم بكارتها او تخون زوجها فانها كثيراً ما تُعدم الحياة في الحال سريعاً بيد اهلها او زوجها عندما تظهر جريمتها

اما انتخاب العروس فراجع في غالب الاحوال الى الوالدين ولا سيما الى الاب فهو الذي ينتقي زوجةً لابنه ويقول له عنها او يدعه هو يصطفي من يحب من بنات الحي ثم يطلب مشورة ابيه وامه عنها . فاذا لم يكن ثمت مانع من قبَل الابوين او احد الاقارب الادنين يتم لهُ الامر . اما البنت فقلما يُرجع الى ارادتها في انتخاب قرين حياتها . وكثيراً ما لا تعرف زوجها الا ليلة العرس . بيد انها اذا كانت كبيرة او مطلقة من زوج اول فلها كلام في قبول الزواج الثاني او رفضه

ولا يندر ان يكون قد سبق التعارف ما بين الفتى والفتاة عند العين حيث يرد الرعيان كل مساء بغنمهم وابلهم والفتيات بجرارهن او قربهن فتنشأ تلك المحبة التي تؤدي الى الزواج(١) . وان حياة البادية لكثيرة الحرية تتوفر فيها اسباب التلاقي والوصال

على ان هناك عادةً سائدة عند عامة العرب وهي ان ابن العم او ابن الخال له الحق الاول في الاقتران بابنة عمه او خاله

(١) طالع رواية زواج اسحق برفقة في سفر التكوين ف ٢٤

ولا يقدر احد ان يهضمه هذا الحق اذا لم يتخلَّ هو عنه من تلقاء نفسه . والا فتقوم مشاجرة قوية وعداوة شديدة ما بين اعضاء تلك الاسرة . ولقد يتطاير شرارها الى اهل البلدة او الحي كله . فان تمنع الاب عن اعطاء ابنته الى ابن اخيه فان هذا يلتجئ الى شيخ القبيلة او القرية كي يتوسط في اقناع عمه فيأتي بخمسة جمال امام بيت الشيخ ويقول على مرأى ومسمع منه ومن عمه : « هذه لاجل ابنة عمي اني اريدها » . فيجيبه عمه : « اليك مالك لا نريد » فيرجع الشاب بعد خمسة ايام باربعة جمال ويعيد العبارة الاولى – فيجيبه عمه الجواب عينه ثم يعود بعد خمسة ايام اخرى بثلاثة ثم باثنين ثم بجمل واحد ويكرر سؤاله . فاذا اصرَّ الاب على رفضه ياخذ شاة او عنزة فيذبحها امام بيت ابنة عمه قائلاً « هذه ذبيحة البنت » ثم يدخل البيت ويأخذ الابنة اغتصاباً ويذهب بها الى داره ويقترن بها دون مهر او سياق[1]

وهذا الحق على ابنة العم ينتقل من البكر الى جميع اخوته حتى لقد يحدث ان تمرَّ الابنة من الواحد الى الاخر اذا طلقت[2] . وقد جرى مرة ان احدهم اذ رفض عمه ان يعطيه ابنته زوجاً هجم عليها يوم زفافها وتناولها من على الفرس التي كانت مزفوفة عليها ما بين اهازيج النساء وادخلها بيته اغتصاباً

---

(١) يجري ذلك عند بعض العرب (٢) طالع متى ٢٢ : ٢٥

ثم اغلق الباب واقفله . فاضطرّ ابوها ان يعطي ابنته الصغرى لعريس اختها . وقد حُرم سياق هذه لانها اخذت اغتصاباً او « جيرة » حسب قولهم

وتدعى المرأة عند العرب « ابنة العم » والزوج « ابن العم » بسبب هذه العادة الغالبة عندهم ان ترجع الابنة الى ابن عمها شرعاً . ثم تسمى ايضاً « الحلال » و « العرض » ولا يخفى ما في هذين الاسمين من المعنى والاشارة

وعند العرب موانع للزواج تقابل الحقوق المذكورة اي انهم لا يجوزون للغريب ان ياخذ ابنة يريدها من هو اقرب اليها وفوق ذلك لا يجيزون للرجل ان يأخذ ابنة امرأته ولا للمرأة ان تقترن بابن زوجها ولا للاخ ان يأخذ اخته . اما عند المسيحيين فموانع الزواج تمتد الى ما هو ابعد من ذلك كما هو معروف

٢ الخطبة والسياق او الفيد

اذا رام شاب ان يقترن بفتاة ليست من ذوي قرابته الادنين فانه يرسل الى ابويها احد اقاربه او اصحابه يطلب الابنة ويتفق معهما على المهر . وهذا يُدعى عندهم « السياق » في البلقاء « والفيد » في حوران وكلا الاسمين شائعان عند عامة العرب . فان رضي الاب بداءة ذي بدء بمصاهرة هذا

الشاب سواء استشار امرأته واخوته او لم يستشرهم عند ذلك تجري مباحثة طويلة بشأن المهر . ولا بدّ من دخول الام والاخوة والعمومة والاخوال في ذلك الجدال لانهم كلهم لهم منفعة كبيرة او جزئية من هذا المهر وكثيرًا ما يجري هذا الجدال في حضرة الشيخ فينال هو ايضاً نصيبه من الفيد . اما الابنة التي يهمها هذا الامر قبل الجميع او دون الجميع فقلما يفاتحونها به او يرجعون فيه الى رأيها[١] . وفي حقيقة الحال ان الفتاة في هذا الامر نظير سلعة يساومون في ثمنها مساومة السائمة فتعلو قيمتها او تخفض على قدر جمالها او حسبها او نشاطها في الاشغال او جلادتها في الاتعاب او مهارتها في ركب الخيل او جرأتها في الحروب الى غير ذلك من صفات بنت البادية

وقد يكون هذا المهر نقودًا او سائمة من ابل او غنم او بقر او ارضاً او فرساً اصيلة او حبوباً من الغلال او ثياباً او سلاحاً وما شاكل[٢] مما يبلغ قيمته من العشرة الى المئة ليرة .

---

(١) ولقد يخطبون الابنة احياناً وهي فتاة صغيرة السن جدًا الى صبي مثلها صغير ايضاً . وحينئذٍ يتناول ابو الفتاة نباتاً من الارض يدعى « قصالة » ويقدمه لاهل الصبي اشارة الى عقد الخطبة . ثم يعقد عقدة في خيط او منديل تذكرة لذلك وعند ما يبلغ الولدان يتزوجان

(٢) كذلك في العهد القديم طالع سفر التكوين ٢٤ : ٥٣

وقد يتجاوز هذا المبلغ(١) . فيدفع اما دفعة واحدة عند الخطبة او قبل الزواج او في اوقات معينة . ولقد يخدم الواحد منهم سنةً او اكثر من ذلك عند ابي الفتاة حتى ينال ابنته اجرةً له كما فعل يعقوب عند لابان (طالع سفر التكوين ف ٢٩) او انه يعطيه ابنةً من عنده وياخذ ابنة « بدلاً » منها . وكثيرًا ما يجري مثل هذا التبادل بين قبيلتين حتى لا تخرج من الواحدة ابنة دون ان يُعوَّض عنها باخرى مثلها . والا فانهم يطلبون فيدًا كبيرًا جدًا حتى يُرضوا بشيء منه الاهل والشيخ وبعض الاصحاب ايضاً

فاذا تمّ الرضى والاتفاق ما بين الطرفين بعد طويل الجدال . حينئذٍ يُعين وقت الزواج او « الدخلة » وهو العرس ويأتي الخطيب ويذبح في بيت خطيبته ذبيحة تسمي « ذبيحة الخطبة » ياكل منها الاقارب والاصحاب . ومن بعد ذلك يعدّ الايام

---

(١) وهذا عائق كبير لزواج بعض الشبان عندهم لذلك حدد هذا القيد سيادة المطران نقولاوس قاضي لابناء طائفته الروم الكاثوليك في حوران بما لايتجاوز ٣٥٠٠ غرش اي ١٥٠٠ للابنة و ٢٠٠٠ لاهلها ثم سنة ١٩٠٨ خفضه الى ٢٥٠٠ فقط اي ١٥٠٠ للابنة و ١٠٠٠ لاهلها حينئذٍ زاد عدد الزيجات فبعد ان كان في السنة كلها ١٢ او ١٥ ما بين ابناء طائفته الذين يبلغون سبعة آلاف نسمة في حوران اصبح سنة ١٨٩٩ اي بعد التحديد الاول ٧٢ في السنة الواحدة ثم ٩١ بعد التحديد الثاني . وبذلك خدم الكنيسة والوطن معاً (طالع البشير سنة ١٩٠٩ بتاريخ ٢٢ اذار)

الواحد بعد الآخر الى حين زفاف عروسه اليه . فانه لا يجوز له ان يجتمع بخطيبته قبل ذلك الوقت حتى ولا بحضور اهلها . الا نادراً جداً جرياً على واجب الآداب العربية التي لا تبيح للرجل ان يجالس غير امرأته . ولا يخفى على عاقل ما في العادة التي اقتبسناها من الافرنج من الحرية التي يجري عليها الخطيب في كثرة التردد الى خطيبته وطول الاقامة عندها ولاسيما في الاجتماع معها وحدها من الخطر الكبير على الادب والتصون[1] وان البدوي لو رأى ابنته مع خطيبها في الحال التي قد تكون فيها احياناً بعض بنات العصر مع خطيبها لاماتها في الحين بطعنة نجلاء او برصاصة صماء انفةً واستهجاناً

٣ حفلة العرس

ان حفلة العرس او عقد الزواج تختلف كثيراً عند العرب من سكان البادية او اهل الفلح والقرى . هناك امور عامة مثل زينة العروس وزفافها الى بعلها ثم وليمة العرس ومظاهر الفرح فلا بد منها في كل نكاح . بيد ان كيفية ذلك وما يلحق بـه من العوائد المتنوعة والآداب المختلفة فانك لا تكاد تجدها واحدة في قبيلتين او في بلدين من بلاد العرب

(١) سمعت يوماً خطيبة تقول عن خطيبها : « صار لي من البارح ما شفته » فتأمل !

الواسعة الارجاء وانّنا نذكر لقرائنا على سبيل التفكهة عادات اهل حوران ثم اهل البلقاء ثم بعض عرب الخيم موردين ما قد رايناه بعيننا او سمعناه من شهود ثقات

عند مسيحيي حوران

يوم الزفاف يأتي الاقارب والاصحاب من الشبان الى بيت الخطيب ويفتتحون الحفلة بالغناء ثم يدخله بعضهم الى حجرة ويغسلونه على نغمات آلات الطرب والغناء وهم يغتسلون معه ويسبق الخطيب في ذلك من هو اكثرهم اولاداً للتيمن . ويكتحلون بالاثمد ويصطبغون بالحناء نظير النساء . ويضفرون الشعر جدائل مسترسلة ثم يلبسون العريس افخر ملابسه ويركبونه على فرس مزينة ويطوفون به في شوارع البلدة ما بين جم غفير من الرجال والشبان والاولاد والنساء وهذه تغني وتلك ترقص . وقد تتقدمه فتاة من ذوي قرابته وتلعب امامه بالسيف وهي لابسة لبس الرجال وامامها الخيالة والفوارس . وكلما مروا امام بيت من وجوه البلدة يقف الموكب بازائه ويصيح الشبان على تصفيق الايدي قائلين « دحلة دحلة » على مرات عديدة فتخرج اليهم صاحبة البيت وتنثر عليهم من الملبس او القضامة او الزبيب وتعقد منديلاً من حرير او قطن على عنق فرس الخطيب . ثم يستأنف الموكب سيره على هذا النوع في

البلدة كلها . ثم يخرج الى سهيلة قريبة في خارجها فهناك تتراكض الفرسان في ذهاب واياب وقد يصير لعب الجريد او يضعون هدفاً ويصوب عليه اصحاب البواريد بندقياتهم فيصيب المرمى غير واحد منهم . وبعد ذلك يرجعون بهيئتهم الاولى الى القرية وصراخهم او اهازيجهم تبلغ عنان السماء فيعرجون الى دار الشيخ او مختار القرية وقد اعدّ لهم الذبائح فيأكلون ويفرحون . وفي غضون ذلك تكون العروسة في بيتها يغسلونها ويزينونها باحسن ما عندها ويأتون بها الى دار الشيخ حيث يتم العقد بكتابة الكتاب عند المسلمين او الى الكنيسة حيث تصير صلاة الاكليل عليها وعلى زوجها فتكون العروس مغطاة بغلالة بيضاء من رأسها الى قدمها فلا يبين وجهها ولا شيء منها فيبتدئ الكاهن ويسألها كما سأل زوجها هل تريده قريناً لها وهذا السؤال الطقسي ضروري هنا كما اشارت اليه القوانين الكنسية [1] لما يحدث احياناً من اضطرار الفتاة على الاقتران بزوج لا تريده . فلا يباشر الكاهن بصلاة الاكليل حتى يقف بكلمة او باشارة من قبل الفتاة على ارادتها الحرة في عقد الزواج هذا . وفي اثناء الصلاة يتناول بعض الحضور من ذوي الخفة والطيش دبابيس وينخسون بها الزوجين والكاهن نفسه احياناً مدعين ان في ذلك خيراً لهم حتى لا يسترسل الزوجان

(١) طالع مجمع دير المخلص

مع « الفرحة » فيصيبهما فيما بعد مصاب او ترحة ! وبعد نهاية صلاة الاكليل يقودون العروسة الى بيت زوجها وهناك تتم افراح العرس

فانهم ينصبونها على منصة عالية في صدر البيت الداخلي والى جانبيها النساء والبنات من اقارب واصحاب يتناولون النقول مع القهوة . اما الرجال فيلتئمون مع الزوج في ردهة اخرى او في فناء الدار اذا كان الوقت صيفاً وقد ذبحت الذبائح واعدت الولائم فيقومون الى المنسف الكبير من الارز او البرغل وعليه اللحوم منثورة والى جوانبه تسيل مجاري السمن غزيرة فتدل على كرم صاحب العرس[1] . وبعد تناول الطعام يرجعون الى حلقتهم الاولى وتدور عليهم القهوة وانواع النقول . ثم يعقد بعض الشبان منهم حلقة او نصف دائرة على شكل هلال متماسكين بايديهم ويقوم في وسطهم من يحسن الغناء ونظم الاشعار فيقيمون على الغناء ونغمات الشبابة او الربابة رقصاً جميلاً ادبياً رجولياً يسمى « الدبكة » فتراهم كلهم كرجل واحد يتمايلون الى اليمين والى الشمال ويتقدمون الى الامام ويرجعون الى الوراء معاً بخطوات معدودة ومنتظمة بما يسبي الناظر ويقع منه موقع الاستحسان الكامل . وكان في بعض الاحيان يرقص الشبان مع البنات جنباً الى جنب او تقوم في

(١) طالع تفصيل وليمة العرب صفحة ١٩

وسطهم فتاة فترقص بسيف مسلول او منديل حرير وهم يصفقون لها ويغنون على انغام الشبابة . بيد ان هذه العادة من اختلاط النسآء مع الرجال لاسيما في الرقص والمغنى قد ابطلها سيادة المطران نقولاوس قاضي ما بين ابناء طائفته اي الروم الكاثوليك لاسباب لا تخفى على اللبيب

وعند « الدبكة » يغني الرجال مثل هذه القصيدة

(لازمة)

صابري لو جار الزمان علي ... امان يا يوماً من الدروبيه[1]

١

العمر ولّى ما يعود ثاني ... العذر يا كافة جميع اخواني

البعيد قرّب رايداً لي الجي[3] ... لا كتب طلاحي بالورق قراني[2]

٢

عقلي تخرّب ضيع الفنون ... البعيد قرّب صار عند عيوني

دولاب عزّي اليوم داير بي[5] ... يا اهل الذكا من بالكم خلوني[4]

٣

وخدامها عزّنيها ورّاني[6] ... دولاب عزي دارني ورماني

---

(١) الدروبيه اي اخطار الدروب (٢) قراني اي للقراءة

(٣) البعيد هو الموت ورايداً لي الجي، اي يريد ان يجي، الي

(٤) خلوني اتركوني (٥) اي انقلب عزي وراح (٦) خدامها اي خادم الدنيا وهو بفكر الشاعر الشيطان وعزنيها اي عزها ورّاني اي

لبست ثياب تلوق للانسان مرغابة[1] للبسط والكيفية

٤

مرغابة لبست ثياب الزينه خدامها دائم يوصف زينها[2]
إعتبت[3] يا غرة عجب ترمينا[4] عقب المحبة تفلتي من ايدي[5]

٥

بعد المحبة تفلتي وتروحي يا بهجتي وانت عديلة روحي[6]
من كثر صدق نكدت بي جروحي[7] على الفرش مرمي علتي مخفيه

٦

عاشقون سلمى[8] بحبها الحقاني فرضاً مترخ دوم على الانسان[9]
لو عرست[10] بتصعب على النسوان وكم مزبله بوجودها مذريه[11]

٧

يا جملة الخلان جوزوا مني[12] عقلي تخرب راح مني فني

---

(١) مرغابة اي كي ترغب اظهره لي (٢) اي ان الشيطان دائماً يوصف زينها اي جمالها (٣) اي عتبت عليك يا غرة (دنيا)
(٤) اتعجب كيف ترمين وتفلتين (٥) اي يديَّ
(٦) مثل روحي (٧) اي من كثرة ما اصدق تحركت جروحي
(٨) سلمى كناية عن الموت اي يا اهل الموت اقسم بحبها الحقيقي
(٩) انه فرض مترخ اي محتوم به دائماً على الانسان (١٠) عرست اي ولو عملت عرس (١١) اي انها تذري الرماد المكوم في المزبلة يوم الوفاة (١٢) اذهبوا عني

هاتون موسى ولبسونه عني[1] فني وصيتهُ بحجة شرعيـة

٨

فني وصيته مع جميع اقوالي عزبت عنه ما بجيش ببالي[2]
قوموا البسوا الجديد وارموا البالي ما بدّ في بقي قبته مهريه

٩

ارموه عنكم غاد بحذا كواره[3] بترقعوا به لا يروح خساره
خلوه لكم مثل سيف بشاره لا تقطعوا مداه بالكليه[4]

الى اخر ما هناك من الاقوال المحزنة والحانها تحكي معناها اي انها شجية لانها تصف الدنيا وغرورها والموت وفتكاته . وغريب ان يأتي العربي بمثل هذه الافكار المحزنة في حال الفرح والبسط بيد ان الذي يعرف اخلاق العرب وما عندهم من الجدّ والرزانة حتى في ابَّان السرور والطرب لا يعجب من ذلك . وقليل ما عندهم من نشيد او غناء الخفة والطيش

---

(١) هاتوا موسى وهو على الغالب ابنه (٢) عزبته اي نسيته

(٣) غاد بعيداً بقرب كواره (٤) خلوه لكم مثل سيف بشاره وهنا اشارة الى حكاية يروى فيها ان بشاره هذا كان حاكماً في بلاد بشاره (شرقي صور) كان يأخذ من الحجاج ضريبة فلما توفي قالت عنه امرأته انه متغيباً وابانت سيفه فلبثت تستوفي الضريبة مدة اربع سنوات الى ان عرف الحجاج انه قد مات فرفعوا الضريبة . فشبه الشاعر ما يتركه لهم من الاطمار بسيف بشاره ينتفعون به ونعم التشبيه

وتدوم السهرة على مثل ذلك من الغناء تارةً والحديث اخرى مع تواصل شرب القهوة الى نحو نصف الليل وهذا ما يسمونه « السهجة »[1] او السحجة » وفي اليوم الثاني وما بعده ياتون ويهنئون الزوجين ويقدمون لهما الاطعمة وهذه تسمى « البرار »

ويدوم العرس على هذه الصورة ما بين الولائم والسهجة سبعة ايام او اكثر فتنفق فيه النفقات الكبيرة[2]

حفلة العرس في ديار البلقاء[3]

انها تختلف قليلاً عن مثلها في حوران . فان العرس يكون عادة يوم الاحد عند المسيحيين . وفي مدة سبعة ايام قبله يجتمع كل ليلة الاصحاب والاقارب في بيت العريس[4] فيغنون ويرقصون « بالدبكة » المعروفة وقد تقوم بينهم ابنة تكون عادة من قرابة العريس وتلعب بالسيف وتدعى « الحاشي »

---

(١) وهي السهرة في السفر (٢) ان سيادة المطران نقولاوس قاضي قد حصره في ثلاثة ايام لا غير لابناء طائفته الروم الكاثوليك سنة ١٩١١
(٣) البلقاء هي البلاد الواقعة شرقي نهر الشريعة (الاردن) في جنوبي حوران الى مدينة الكرك وقاعدتها مدينة السلط (٤) اننا جرياً على المتعارف بين العامة قد اطلقنا كلمة العريس على الرجل والعروس على الامراة ولو خالفنا في ذلك اللغة الفصحى قليلاً

وقد يرقص معها فتاة اخرى لابسة لبس الرجال ومدججة بالسلاح وتدعى « عزب »

ثم يوم الجمعة يجمع اهل العريس نحو عشرين دابة ويرسلون بها الى الحطب مع بضعة رجال . وعندما يرجعون محملين الحطب يستقبلونهم بالاهازيج والغناء ويأكلون من الذبيحة التي اعدها لهم ابو العريس ويعودون الى بيوتهم ولكل دابة ثلاثة عيدان من الحطب

اما السبت مساء فتصير « السهجة » كالعادة ويضعون « الحنة » (الحناء) على ايدي العريس والعروس واهلها . ثم يوم الاحد عند الظهر يزيلونها ويسخنون الماء للاغتسال فيغتسل مع العريس اصحابه من الشبان والرجال ويسبقه من هو اكثرهم نسلاً تفاؤلاً . ثم يلبسونه اثواب العرس ويذهبون به راكباً فرساً مزينة بالغنا وطلق البواريد والمسدسات الى الكنيسة لاجل صلاة الاكليل

اما النساء فانهن يأخذن عوداً طويلاً ويجعلن عليه اثواب العروس او جهازها وتحمله واحدة من اقارب العريس وتذهب الى بيت العروس ومعها جمع كثير من النساء والبنات فتنضم كل ثلاثة او اربعة منهن تحت عباءة واحدة وهي تكون عادة العباءة التي سيهديها العريس الى عم العروس او الى خالها او الى غيرهما وتحت تلك القبة السيارة يغنين الاهازيج للزوجين

وعند بيت الشيخ او الخوري او احـد الاعيان يقفن هنيهة وينشدن له تقريظاً فيقلن مثلاً امـام دار الخوري : « ابنوا للخوري في السلط علية لولو لو » فياتين بيت العروس فيغسلنها ويلبسنها اثواب العرس ويذهبن بهـا على فرس مطهمة باحتفال كبير الى الكنيسة حيث تلتقي بالعريس لنيل اكليل العرس معه

وبعد ذلـك يعود الجميع الى بيت العريس وهناك تقوم الافراح الكبيرة وتتوفر اسباب البسط والهناء . فعند وصول الزوجين الجديدين الى باب الدار يُقدم للعروس خميرة فتلصقها على عقد الباب تيمناً بالخصب . اما العريس فيقدمون له غصن زيتون فيقطعه بسيفه اشارة الى السلام وقد يفرطون رمانـة عند قدمي العريسين تفاؤلاً بالذرية العديدة . فيدخل الزوجان البيت ويجلسان معاً في صدر الردهة المعدة للعرس ومن حولهما النساء . اما الرجال فيلبثون خارجاً في صحن الدار او عـلى سطح البيت ثم لا يبطئ ان يخرج العريس اليهم . حينئـذٍ يقدمون وليمة العرس الحافلة بلحوم الذبائح والارز والسمن . وبعد تناول الطعام « ينقط » العريس من يريد من الرجال وقد يبلغ النقط الواحد ديناراً (او ليرة) برأسها . ثم يعود الزوجان ويجلسان معاً في ردهة العرس هنيهة من الزمن الى ان يأتي الاشبين ويخرج الحاضرين كلهم ويترك العريسين وحدهما في الغرفة مدة طويلة . يأتي من بعـدها بعنزة مليحة فيخرج

العريس ويتناولها ويذبحها امام عروسه وهي قابضة عليها ويغري بدمها الباب وعضادتيه واذا شاء جبهة زوجته وصدرها . وهذه الذبيحة تسمى « ذبيحة الحلة » اي شريعة الزواج. قد يذبحونها من على السطح حتى يسيل دمها على الباب وعضادتيه. ثم يذهب كل الى بيتهِ . وفي الغد يأتي اولاً اهل العروس ومعهم الفطور من خبز مغموس بسمن وسكر (لزاقيات) . فيخرج اليهم العروسان ويأكلان معهم . فتقدم العروس العباءة لامها وبعد ذلك يفد المهنئون ومعهم الهدايا من الغنم او المعزي او غيرها للذبح مدة العرس كلها وهذه الهدايا تسمى « قرى العريس » نظير « البرار » في حوران ويدوم العرس عندهم سبعة ايام في كل مساء منها تصير السهجة على الهيئة المذكورة سابقاً . وفي هذه المدة يلازم الاشبين العريسين ما دام المهنئون يفدون اليهما كي يدربهما في جميع واجبات اللياقة في مثل هذه الاحوال[1] .

وبعد سبعة ايام العرس هذه يباشر اقارب العريس ومعارفه ان يدعوه الى تناول الطعام عندهم مدة سبعة ايام اخرى

---

(١) وعندهم هذه العادة الغريبة انه اذا اخلّ احد العريسين بواحدة من هذه الواجبات فللاشبين ان يضربه بعصاة تكون في يده . واذا جلس احد من الوافدين دون ان يقول للعريسين « تريحوا » لانهما يقفان لكل زائر فللاشبين ان يفرض عليه جزاء فيؤديه له . ولذلك اذا اضطر هذا الوكيل الى التغيب فانه يقيم غيره مقامه الى حين رجوعه

ويبعثون بقطعة من الذبيحة او بشيء من الطعام الى العروس التي تمكث في بيتها او تذهب مدة بضعة ايام الى عند اهلها ويتقدمها منسف طعام من عندها . وتنتهي بذلك ايام العز والسرور وتبتدئ ايام الشغل والعناء

زفاف العروس من بلدة الى اخرى
او من قبيلة الى مثلها

عند العرب البلقاوية (سكان البلقاء) من اهل الحضر عادات خصوصية لاسيما في نقل العروس من حي الى اخر فتحدث مظاهرات غريبة لا بد من ذكرها هنا . فانهم اذا هموا بزفاف العروس الى زوجها ياتون بجمل كبير ويركبون عليه هودجاً جميلاً مزيناً يسع اربع بنات منقيات من ذلك الحي فتركبه من هي جميلة الوجه وحسنة الصوت من قرابة العريس . ويمتطي الرجال خيلهم ويتقدمون الهودج ويتبعونه وهم مدججوا السلاح لابسوا افخر الثياب فعندما يصلون الى حي العروس او بلدتها يحطون ركبهم وتذبح امامهم الذبائح وتعمل القهوة كالعادة . فيقدمون ما تبقى من الفيد او السياق لاهل العروس من ماشية او ملبوس او غيره كما ذكرنا فيقضون تلك الليلة عندهم وفي اليوم التالي يستعدون لزفاف العروس الى زوجها اما هذه فمن العادة الجارية عند بعض العرب مثل الصلايطة

والصخور وغيرهم ان تهرب من وجههم الى البطين اي الى وادٍ هناك او الى السهل فتختفي فيه . ويفتشون عليها مـدة حتى يجدوها فيأتون بها ويلبسونها اثوابها الجميلة ثم تأخذ رضى والديها واهلها وتركب الهودج المهيأ لها او فرساً مزينة وترتفع حينئذٍ اصوات الغناء الاهازيج (والزلاغيط) وتجري الخيل امامها مطاردة ويطلق الفرسان بنادقهم طلقات عديـدة . وبينما هم كذلك واذ بنساء الحي وبناته يشنن الغارة على العروس فيلحقنها بالحجارة ويرجمنها ثم يهجمن عليها ويسقطنها من الهودج او صهوة الفرس ويجررنها على الحضيض بغرة شعرها ممانعة في ذهابها . ويقال ان اخاها او اختها او ابن عمها قد يضربونها بالعصي على رأسها حتى يشدخوها ولا تكمل الحفلة هذه (الهمجية) حتى تؤلم الفتاة او يجري دمها . عند ذلك يأتي الرجال ويخلصونها وتنتهي هذه المظاهرة العدائية[1] . فترجع العروس الى مركبها ويسير الموكب بالفرح والغناء وهي تودع اهلها ما دامت على مرأى منهم بمنديل تشير به اليهم . ولا بد ان يرافقهـا بعض ذوي قرابتها ممن قد قدموا لها الهدايا نظير « المكافيت » وهي

---

(١) كذلك الشركس القاطنون في تلك البلاد لا يأخذون زوجهم الا خطفاً واغتصاباً فان العريس بعد الاتفاق مع حميه يعين يوماً او ليلة لعروسه يوافيها فيه فيأخذها خطفاً ويضعها في احـد البيوت وبعد معاركة عنيفة مع ذويها يتصالحون ويأخذ امرأته حلالاً

اكياس كبيرة من صوف مختلف الالوان من شغل بنات العرب . فتضع فيها جهازها وحوائجها

وكلما مرت هذه « الفاردة » اي موكب زفاف العروس على حي او بلدة ترتفع الاصوات بالغناء والاهازيج وتعدو الخيل وتطلق البنادق . وقد يحدث نظير الحملة الاولى على العروس من قبل نساء الحي . الا ان الرجال يبادرون الى المحاماة عنها . ولما ينتهي الموكب الى حي العريس او بلدته فهناك حدّث عن مظاهر الفرح ولا حرج . فتخرج النساء بالاهازيج لاستقبال العروس ويدخلنها الى خيمة خصوصية تضرب على جانب من الحي ولذا تسمى « برزة » او « خلة »

وقد دعا اليها اهل العريس من ارادوا من الاصحاب والمعارف فيأتون بالهدايا من شاة او عنزة او جدي فتذبح الذبائح وتبتدي حفلة العرس وتدعى عندهم « الزي » فيصير اولاً ركاض الخيل في الميدان ثم تناول الطعام ثم السهجة بالرقص بالسلاح الابيض فان ابنة ماهرة بلعب السيف تلبس لبس الرجال وتنازل احد الشبان وتلعب معه بالسيف والترس امام الحضور الذي يصفق لها ويغني . اما الشاب او الرجل فاذا فاز عليها فانه يكتفي بوضع يده على رأسها . اما هي فان غلبت فلها ان تضربه بحد السيف ولو جرحته . ولا غروى فهي في كلا الحالين القوية الغالبة وذاك هو الضعيف المغلوب ..

وليس بنادر ان ينازلها في هذا الميدان او يرقص معها جنباً الى جنب الشيخ الهرم الذي يسمي ذاته عند ذلك تبجحاً : « اشهب ظهر » « واصفر النياب » وهما من اسماء الابل يلقب بها الجمل الكبير الذي يركبه عقيد القوم او قائد الغارة . وقد يسابق الشيوخُ الشبانَ الى مراقصة الفتيات ويأتون بحركات لا ترضى بها رزانة الشيخوخة. ومن شدة التصفيق قد تتخضب الايدي بالدماء فيقرعون حينئذٍ صدورهم لكثرة التهيج

اما النساء فتلبثن منفصلة عن الرجال وهن مزينات بافخر الاثواب ويلعبن لعبة تسمى « الشلاغيني » وهي ان يأخذن بايدي بعضهن ويعقدن حلقة كبيرة او نصف دائرة ويغنين معاً وتقوم واحدة منهن تنشد للعروس والعريس وللمشايخ والاعيان الحاضرين . والاخريات يجبن عليها

اما العروس في تلك الاثناء قد تهرب من خيمتها فيذهب العريس في اثرها الى ان يجدها في البرية فيأتي بها الى « خلتها» وقد تعود الى الهرب مرة اخرى وتعمل ذلـك اما حياء من الزواج واما جرياً على عادة قومها في مثـل هذه الاحوال . واذا لم تفعل تدعى « ربوغاً » اي اسيرة اللذة والهناء . ويبقى الزوجان في البرزة او خيمة العرس مدة ثلاثة ايام على الأقل في اثنائها ياتيهما الاهل والاصحاب بالطعام وتصير عندهما السهجة

كل ليلة . ومن بعدها ينتهي العرس وافراحه ويرجع كل من العريسين الى شغلهما[1]

٤ً حفلة العقد عند عرب البادية

ان ما ذكرنا من حفلات العرس ومظاهر الفرح هو جارٍ خصوصاً عند العرب الحضرية اي سكان القرى اما اهل البادية فقلما يحتفلون باعراسهم على هذا النسق وقد يعد ذلك بعضهم عاراً وفضيحة . اما هم فاكثرهم يكتفون بعد الاتفاق على المهر بكتابة العقد عند الخطيب او الشيخ . ثم تقاد اليهم عروسهم محفوفة بنساء قرابتها حينئذٍ يذبحون شاة او ابلاً ويوزعون لحمها عليهن نياً ويدخلون على العروس . وفي اليوم الثاني تباشر اشغال البيت كالعادة[2]

---

(١) ان العبيد الموجودين عند العرب يأخذون لهم زوجاً من جنسهم فانه عار على الحرّ ان يقترن بعبدة والعربية الحرة لا تقبل عادة العبد بعلاً لها بل ان من يكون في خدمته عبد او عبدة يشتري لها زوجاً من جنسها فيتزوجان واولادهما يبقون في حوزة سيد البيت الذي زوج اباهم . فمن ذلك وجود العبيد ما بين العرب

(٢) عند عرب عنزة والروَلة يقولون اختصاراً للزواج : « اذبح جديك واعبر جاي » اي اذبح جدي العرس وادخل خيمتك

واليك بعض عوائد خصوصية

عند عرب الصخور توكل الفتاة واحداً لاجل عقد زواجها وقد يكون هذا الوكيل اباها او اخاها وذلك امام شهود فيسألونها قائلين : هل وكلتِ (فلاناً) لعقدكِ ونكاحك فتجيب نعم اني وكلت (فلاناً) حينئذٍ يذهب ويعقد لها على من تريده او يريده موكلها لها . ويجوز عندهم ان يزور الخطِيب خطيبته ليلاً فيسامرها بحضور اهلها ثم يرجع ليلاً الى اهله وان كانت الشقة بعيدة

عند عرب الشرارات يجتمع الاب والعريس معاً امام شهود فيحمل الاب قبضة قمح او كسرة خبز او عشبة مما يطبخ او ما شاكل مما يؤكل فيقول للعريس : « يا فلان هل قبلت (فلانة) بسنّة الله ورسوله ؟ » فيجيبه العريس قائلاً: « قبلتها وعلى الله القبول » ويتناول ما في يد عمه ـ فيقول له هذا : « داخل على الله من الملّ والاملال تاخذ باحسان وتفارق باحسان » اي : الله يحفظك من الملل الفاعل والمفعول فتأخذ زوجك محسناً اليها وتطلقها اذا لزم كذلك ثم تُزف له عروسه في تلك الليلة

وعند بعض العرب يوكِل كل من الشاب والشابة وكيلاً عنهما يعقد الزواج بدلاً منهما فيجتمع الوكيلان ويقولان :

« هل قبلت عقد نكاح (فلانة) ابنة (فلان) على مذهب حنيفة بن النعمان ـ فيجيب الثاني نعم قد قبلت عقد نكاح (فلان على فلانة) على مذهب حنيفة بن النعمان » . ويكرران ذلك ثلاثاً فيتم العقد وترسل العروس الى زوجها دون حفلة ولا اهتمام

***

وقد يباشر الزوجان العقد بانفسهما عند بعض العرب من ولد علي والنمير والعنزة . فيأتيان امام الخطيب وبعض شهود من الحي ويجلس كل منهما على حجر مقابل الثاني فيقول الشاب اولاً : « انا على حجر وانتِ على حجر واشهد يا رب البشر هل قبلتِني لك زوجاً على سنّة الله ورسوله فتجيب الفتاة : قد قبلت . ثم تقول هي : انا على حجر وانت على حجر واشهد يا رب البشر هل قبلتني لك زوجاً على سنة الله ورسوله ـ فيجيبها نعم قد قبلتك » . حينئذ يدخلان الخيمة ويذهب كل الى محله(١)

---

(١) قيل : اذا رغبت فتاة في الاقتران برجل قد اشتهر بفروسته او كرمه فترسل طالباً يقول له من قبلها : « تراني شعرة من شعر شواربك او خيطاً من خيطان عباءتك فاني حيدت عني حيد عن ناطحك » اي ان ابيتَ الاقتران بي فكأنك قد هربت من وجه مقاتلك وهذا عار عليه . فلعله يقبَل !

٥ الخطف

خطف الزوج عند العرب كثير وقوعه وسببه حصر حرية الزواج عندهم على ما رايت . فانه اذا اراد شاب الزواج بابنة وقام دون بغيته ممانع من اهلها او من غيرهم فانه يتواطأ مع بعض اقاربه او اصحابه او بعض اهل العروس انفسهم ويخطف الفتاة سواء اطلعوها على نيتهم او فاجأوها مفاجاة ويهرب بها الى احد الوجهاء او المتنفذين من عرب الخيم او من سكان الحضر . وعلى هذا الذي التجأ اليه العريس ان يضطر اهل الفتاة لان يرضوا بزواج ابنتهم وان لم يذعنوا له قام هو ضدهم واوقع بهم خسائر كبيرة انتقاماً لما يلحق به من الاهانة ان لم يفز بسعيه

ويكون الهرب والالتجاء الى بعض المقتدرين تخلصاً من زواج لا يريده الاهل او تنفر منه الفتاة فتنجو بنفسها مع بعض ذوي قرابتها وتطلب محاماة شيخ كبير او وجيه قدير . فيخلصها او يوفقها مع طالبها

٦ المحبة الزوجية والطلاق وتعدد الزوجات

هناك في البادية ما بين تلك القبائل البعيدة عن التمدن الحديث قلما تجد اثرًا للاختلافات العديدة التي تقع في مدنيتنا

العصرية مابين الزوجين في عدد كبير من الاسر وتجعل حياتهما معاً امرّ من العلقم . بل ان السلام والوئام ضاربان اطنابهما في اسر البيدآء بوجه العموم . وانك لتجد تحت تلك العباءة الخشنة قلباً ارق من النسيم يختلج حباً وانعطافاً الى زوجه وهو مستعد ان يفديه بالروح العزيزة . فاذا مرض الرجل تخدمه امرأته بعناية واجتهاد لا يعتريهما الملل ولو استمر على فراش المرض السنين الطوال . ولقد يحمل الزوج زوجه اذا ارادا الانتقال من محل الى آخر وكان احدهما غير قادر على المسير او الركوب . وليس بنادر ان يأتي البدوي زوجه بهدية من الحلى او الثياب او النقول لاسيما عند رجوعه من سفر الى احدى المدن القريبة او نجاحه في غارة او سرقة . على انه بوجه الاجمال علاقة سكان البادية مع نسائهم اقلّ منها في الشعوب المتمدنة اوسكان المدن لان البدوي مشغول عن زوجه برعاية ابله او فلاحة ارضه او شن غاراته واجتماعه مع الرجال دون النساء .

ولا بد ان يقع الاختلاف احياناً ما بين الاعرابي وامرأته على حد بقية الناس لتباين في الاخلاق او تقصير في القيام بواجبات البيت او لملل وسأم . عند ذلك قد يطلق الرجل زوجه بكلمة من فيه . فترجع المرأة الى اهلها دون ان تأخذ معها شيئاً وتحرم اولادها غير انها تبقى في حوز بعلها حتى يلفظ

هذا كلمة الطلاق ثلثاً حينئذ تحل من تملكه ويجوز لها ان تصير لاخر . واول من له حق عليها انما هو اخو زوجها او سلفها . وفي وسع رجلها الاول ان يرجعها اليه قبل ان يعقد عليها آخر . واكبر اسباب الطلاق عندهم الخيانة والعقم

ويحق للبدوي ان ياخذ مع زوجه الاولى غيرها الى الرابعة ان كان في وسعه اعالتهن ولقد يفرز لكل منها مكاناً في بيته او في خيمته الكبيرة اما السرية فممنوعة عندهم بوجه العموم[١]

٧ الزواج في الكتاب المقدس

قد وضع الخالق الزواج منذ فطر الانسان اساساً لنمو النوع البشري . وقد فقه آدم هذه الغاية الالهية حينما شاهد لاول مرة بعد انتباهه من السبات الذي اوقعه الله عليه حواء المرأة الاولى ماثلة امامه جميلة فتانة فقال : « ما هذه الا عظم من عظمي ولحم من لحمي هذه تسمى امرأة لانها من امرئ أخذت » (تكوين ٢ : ٢١)

فمن ثم كان الزواج شريعة عند اليهود محتوماً بها فلا يكاد يخرج عنها احد . بل انهم كانوا يتباهون بكثرة الاولاد[٢]

---

(١) اذا اشتد الخصام ما بين الضرتين يقوم اليها الرجل فيضربها ثم يوثقها معاً برباط واحد ويدعها على هذه الحالة الى ان تتوبا

(٢) خلافاً لرأي وتعليم بعض متمدني عصرنا الذين يأبون كثرة الاولاد

ويحسبون العقرية عاراً او عقاباً من الله[١] . فيطلبون منه تعالى الخصب ووفرة البنين

وكان الزواج اولاً مقصوراً على امرأة واحدة فلا تتعدد فيه النساء . بيد انه ما لبث ان خرج عن هذه الحدود[٢] رغبة في كثرة الذرية كما فعل الاباء نظير ابرهيم[٣] ويعقوب[٤] . على ان المرأة الاولى هي التي كانت تعدّ شرعية وما سواها سريّة لا غير[٥] واولاد هؤلاء كانت ترجع الى الاولى[٦] وهي التي ترضى بتعداد السراري لدى زوجها املاً بوفرة الاولاد لاسيما اذا كانت هي عاقراً[٧] . وانه فيما بعد قد اصبح الاقتران بغير

هرباً من العناق او خوفاً من الفاقة . وهذا لعمري اقرب طريق اليها لانه يخالف ارادة الله في وضع الزواج اذ قال « انموا واكثروا » ويهين العناية الربانية لقلة الثقة بها

(١) طالع لوقا ١ : ٢٥ و١ ملوك ف ١ وتكوين ٢٩ : ٣٢ و٣٠ : ١ « وقالت راحيل ليعقوب زوجها هب لي ولداً والا فاني اموت »

(٢) يظهر ان اول من تعدى وحدة الزواج رجل من نسل قاين وهو لامك فانه اتخذ له امرأتين (طالع تكوين ٤ : ١٩) - بيد ان نوحاً قد رجع الى الشريعة الاولى فزوج كلاً من اولاده الثلاثة بامرأة واحدة (طالع تكوين ٧ : ١٣)

(٣) طالع تكوين ١٦ : ٤ و٢٥ : ١

(٤) طالع تكوين ف ٢٩ كذلك عيسو طالع تكوين ٢٨ : ٩

(٥) اخبار الايام الاول ٧ : ١٤ (٦) طالع تكوين ٣٠ : ٦

(٧) طالع تكوين ١٦ : ٣ فان سارة قالت لابراهيم ان يدخل على امتها هاجر

واحدة من النساء امرًا شرعياً على ان يعدل الرجل بينهن في الطعام والكسوة والميراث[1] وكان الاغنياء والمسلطون يكثرون الزوجات لتوفر النسل[2]

اما الطلاق فلم يجرِ الا بعد اجيال عديدة على عهد موسى[3] كما قال السيد المسيح مشيرًا الى رباط الزواج الذي لا يحله الا الموت[4] : « ان ما جمعه الله لا يفرقه انسان اما موسى فلاجل قساوة قلوبكم اذن لكم ان تطلقوا نساءكم ولم يكن في البدء هكذا » (متى ف ١٩) وقد اظهر الله كرهه للطلاق في الكتاب المقدس[5]

---

(١) بدليل ما جاء في الكتاب الكريم من الشرائع لهذه الحال طالع تثنية الاشتراع ٢١ : ١٥

(٢) جاء في سفر القضاة ٨ : ٣٠ « انه صار لجدعون سبعون ابناً خرجوا من صلبه لانه تزوج بنساء كثيرة » على ان الشريعة تحذر الرجل من استكثار النساء لئلا يزيغ قلبه (طالع تثنية ١٧ : ١٧) اما العادة فكانت تجيز اثنتين وما زاد من ذلك فقليل الوقوع

(٣) اما ترك ابراهيم لهاجر فلا يحسب ذلك طلاقاً لان هاجر هذه لم تكن امرأة شرعية لابراهيم بل سرية او امة لا غير . ولما سارة اتت بها ابراهيم زوجها لينال منها ولدًا حيث انها كانت عاقرًا قبل ان يهبها الله اسحق ولذلك لما نالت اسحق طلبت من زوجها هجرها فطردها من بيته مع ابنها اسماعيل (طالع تكوين ف ٢١)

(٤) طالع ١ كورنتس ٧ : ٣٩ ورومية ٧ : ٢

(٥) طالع ملاخي ٢ : ١٤ و١٥

عقد الزواج عند اليهود

ان الذي يطالع الكتاب المقدس فيما يتعلق بامر الزواج عند اليهود ويعرف عوائد العرب في ذلك يرى بين الامتين مماثلة كبيرة من هذا الوجه كما هي الحال بينهم في غير ذلك من العادات والاخلاق . ولذلك ترانا في درسنا هـذا نقابل دائماً بين الفريقين . وانما غايتنا في ذلـك مزيد ايضاح في فهم كتاب الله الكريم بما نراه اليوم بام العين من ماجريات حياة العرب في كل طور من معيشتهم . واليك الان ايها القارئ اللبيب بايجاز كيفية عقد الزواج عند اليهود قديماً

الخطبة والمهر

ان الابوين ينتخبان عادة عروساً لابنهما دون معرفة منه وبعد ان يقر رأيهما على الفتاة المناسبة يقولان له عنها وكثيراً ما لا يعرفها الشاب الا عند الاقتران بها . فان ابرهيم قـد ارسل عبده الى عشيرته في ارض حاران لينتقي زوجة لابنـه اسحق ويأتيه بها . ففعل . فخرج اسحق للقائها واتخذها زوجة له[1] . وقد يأخذ الرجل امرأة له من يستحسن من النساء دون

(١) تكوين ٢٤ : ٣٨ و٦٧

مشاورة ذويه كما فعل عيسو وشمشون[1]

وكان اليهود بوجه الاجمال يبادرون الى الزواج حالاً عند بلوغهم اشدهم نظير العرب فلا يدرك احدهم سن الاربعين حتى يكون له ولد في سن العشرين او اكبر[2]. وهم يساومون مهر الفتاة مساومة[3] على قدر منزلة الابنة عند ابيها وحسنها ومهارتها . او تعطى مكافأة عن مأثرة[4] فياخذون مهرها اما حبوباً[5] او مواشي او خدمة مدة من الزمن كما فعل

---

(١) تكوين ٢٦ : ٣٤ و٣٥ ــ وقضاة ١٤ : ٢

(٢) ان يورام ملك يهوذا توفي في سن الاربعين عن ولد له ٢٢ سنة وآمون ترك ولداً له ثماني سنين اسمه يوشيا فتزوج هذا وهو ابن ١٤ سنة (طالع ٤ ملوك ف ٨ و٢١ و٢٢) والملك يواكيم لم يبلغ ٣٦ سنة حتى كان له ابن في سن ١٨ سنة (٤ ملوك ٢٤ : ٨) وكانت هذه المبادرة الى الزواج جارية بين الشعب ايضاً فان العادة عندهم ان يتاهل الشاب في سن ١٨ اما الفتاة فتبلغ عندهم شرعاً في سن ١٢ سنة

(٣) جاء في الكتاب المقدس ان شكيم الحويّ رئيس بلد شكيم احب دينة ابنة يعقوب فطلبها من ابيها واخوتها قائلاً : «هبوني حظوة في عيونكم وما تقترحوه علي اوده لكم اكثروا عليّ المهر والعطايا جداً فاعطيكم كما تسومون لي واعطوني الفتاة زوجة» (تكوين ٣٤ : ١١) وطالع ايضاً خروج ٢٢ : ١٦ و١٧

(٤) ان شاول وعد داود ان يعطيه ابنته ميكال التي احبته مقابل مئة رجل من الفلسطينيين يقتلهم داود (طالع ١ ملوك ١٨)

(٥) ان هوشع النبي قد ابتاع زوجته بخمسة عشر من الفضة وبحُمر

لابان[1] ولا تنال الفتاة من ذلك شيئاً الا نادرًا وقليلاً[2] وقد تباع الابنة بيع العبيد[3] فاذا تم الاتفاق بين الوالدين حينئذ يخبرون الابنة وقد يطلبون رضاها كما فعل لابان نحو ابنته رفقة[4] ثم يكتبون معاهـدة[5] او يكتفون بالكلام والشهود ويحتفلون بالخطبة وعلى الارجح ان الخطيب يقدم خاتماً لخطيبته[6] . وعند اليهود قديماً كانت تحسب الخطبة كزواج شرعي[7] فالابنة التي تخونه تحكم عليها الشريعة بالاعدام[8] وللخطيب ان يرفضها بكتاب

ونصف حُمر (مكيال) من الشعير وان هذا المهر بخس بسبب حال هذه المرأة (طالع هوشع ٣ : ٢) (طالع ايضاً تثنية الاشتراع ٢٢ : ٢٩ و١٩) ترَ مهر الفتاة التي يذلها الرجل ويضطر الى الاقتران بها فهو خمسون من الفضة

(١) تكوين ف ٢٩

(٢) كما نالت رفقة من قبـل اسحق ٥ آنية فضة وآنية ذهب وثياباً ، تكوين ٢٤ : ٥٣ وفي سفر القضاة ١ : ١٥ نرى عكسة تنال من ابيها كالب ينابيع ماء لاراضيها . وفي ٣ ملوك ٩ : ١٦نالت امرأة سليمان من ابيها فرعون مدينة جازر التي اخذها عنوةً فاعطاها مهرًا لابنته

اما اليوم فقد يعرض الابوان عـلى الرجل ان يأخذ ابنتهما ويعولها في بيته سنة او اكثر

(٣) طالع خروج ٢١ : ٧

(٤) تكوين ٢٤ : ٥٧

(٥) طوبيا ٧ : ١٦

(٦) اشعيا ٣ : ٢١

(٧) ان الملاك يسمي مريم البتول امرأة يوسف البـار مع انها بشهادة الانجيل عينه لم تكن بعد الا خطيبة له (طالع لوقا ١ : ٢٧)

(٨) طالع تثنية الاشتراع ف ٢٢ : ٢٣

طلاق على حد المتزوجين[1] وتكون الفسحة ما بين الخطبة وحفلة العرس سنة او شهراً واحداً او بضعة ايام[2] وفي هذه الاثناء لا يجوز للخطيب ان يزور خطيبته بل له ان يخاطبها بواسطة وكيل يدعي « صديق العريس[3] »

الزفاف

بعد الاحتمام والاكتحال والتطيب[4] يزينون العروس بافخر ملابسها واثمن حليها ويضعون على رأسها تاجاً[5] ويغطونها بحجاب ابيض نظير اثوابها فيغشاها من قمة رأسها الى قدميها[6] ثم يدعون لها بالبركات السماوية والارضية[7] ويزفونها ليلاً بابهة وجلال من بيت ابويها الى مسكن زوجها فيسير امامها جم غفير من

---

(١) على حد ما اراد ان يعمل يوسف خطيب مريم متى ١ : ١٩
(٢) تكوين ٢٤ : ٥٥
(٣) طالع يوحنا ٣ : ٢٩ فان يوحنا يشبه نفسه بصديق العريس
(٤) طالع راعوث ٣:٣ وتكتحل العروس ايضاً طالع حزقيال ٢٣ : ٤٠
(٥) طالع اشعيا ٦١ : ١٠ واذا كانت العروس بتولاً يسبل شعرها على كتفيها
(٦) وهو الخمار طالع تكوين ٣٨ : ١٤ ولذا لا يرى الرجل وجه عروسه حتى يدخل عليها حتى لقد يخدع بها كما حدث ليعقوب مع ليئة اذ اخذها بدلاً من راحيل طالع تكوين ٢٩ : ٢٥
(٧) طالع تكوين ٢٤ : ٦٠ وراعوث ٤ : ١١ و١٢

الرجال والنساء حاملين المصابيح[1] وجوق من اهل المعازف وآلات الطرب[2] ويحف بها اهلها وصديقاتها[3] فعندما يصلون الى بيت عريسها يستقبل هذا عروسه بمظاهر الفرح والسرور فيأخذها بيدها ويأتي بها الى داخل بيته ويجلسها على دكة مرتفعة فتحيط بها النساء والبنات[4] وتقدم حينئذٍ الولائم والاطعمة الفاخرة وانواع النقول. ويقوم الرقص والغناء[5] والعزف بالات الطرب[6] وفي ذلك الحين قد ينسى بعض الشيوخ رصانتهم ويتقربون من العروس يهنئوها ويرقصون بحضرتها[7] ثم يتطارح القوم الالغاز[8] . ويدوم العرس على هذا النمط سبعة ايام او خمسة عشر يتوافد فيها المدعوون من الاصحاب والجيران لابسين ثوب

---

(١) طالع مثل العذارى في الانجيل (متى ٢٥)

(٢) طالع ارميا ٢٥ : ١٠ و٣٣ : ١١ ورؤيا ١٨ : ٢٢

(٣) طالع المزمور ٤٤ : ١٥

(٤) طالع المزمور ٤٤ : ١٠ وهذا المزمور يصف زفاف العرس وصفاً شائقاً

(٥) طالع متى ٩ : ١٥ وقضاة ١٤ : ١٠ ومتى ٢٢ مثل العرس

(٦) عند اليهود اليوم يتناول العريس كاساً من الخمر فيرتشف منها ثم يسقي الكاس عروسه وبعد ذلك يرفس الكاس برجله الى الارض اشارة الى خراب اورشليم وبعد العرس تقص الام شعر ابنتها المتزوجة وتعيد ذلك كلما كبر شعرها تثنية الاشتراع ٢١ : ١٢

(٧) كما جاء في تقاليد اليهود والتلمود وطالع ارميا ٣١ : ١٣

(٨) كما فعل شمشون يوم عرسه طالع قضاة ١٤ : ١٢

العرس الذي يقدمه لهم العريس[1] ويأكلون على مائدته[2]

موانع الزواج عند اليهود

كان يحظر على اليهود قديماً ان يقترنوا بامرأة اجنبيـة من الامم المجاورة لهم نظير الفلسطينيين والكنعانيين والعمونيين والادوميين والمصريين والاشوريين[3] والسبب في ذلك اختلاف الشرائع والاخلاق والعادات[4] ولاسيما الحذر من تسرُّب الوثنية او عبادة[5] الاوثان الى الامة اليهودية كما جرى ذلك في ظروف عديدة[6] ولذلك كان الذين يقدمون على مثل هـذا الاقتران يُنظر اليهم شزراً[7] لما في عملهم هذا من التعدي على الشريعـة ولما يجلب من العقاب الالهي[8]

والزواج ما بين ذوي القرابة الدموية والعصبية كانا ممنوعاً

---

(١) طالع متى ٢٢ : ١١ (٢) طالع عرس شمشون في سفر القضاة ف ١٤

(٣) طالع تكوين ٢٤ : ٣ وتثنية الاشتراع ٢٣ : ٣ على ان المصريين والادوميين كان يتاح لهم ان يأخذوا من بنات اليهود فيصبح نسلهم يهودياً بعد الجيل الثالث (تثنية ٢٣ : ٧)

(٤) طالع تكوين ٢٦ : ٣٤ و٣٥

(٥) خروج ٣٤ : ١٦ (٦) طالع سفر القضاة ٣ : ٦ و٧

(٧) تكوين ٣٤ : ١٤ (٨) تكوين ٦ وسفر عزرا ف ٩ و١٠ ونحميا ١٣ : ٢٣ و٢٧ اما الاسيرة فيجوز اتخاذها زوجة بل ينبغي معاملتها برفق على انه يمكن تخليتها فيما بعد لاي سبب كان طالع تثنية ٢١ : ١٤

ايضاً في حدود معلومة مثل الاقتران مع الام او سرية الاب ومع الابنة او الاخت. سواء كانت هذه من الابوين او من احدهما ومع بنت الزوجة او بنت ابنها او بنت الابن او بنت الابنة او مع العمة او الخالة او امرأة العم او الكنة امرأة الابن او الاخ ما دام حياً او اخت الزوجة ما دامت هذه حية[1] فكان يُعد مثل هـذا الاقتران او الاجتماع مع هؤلاء المذكورات سبب غضب وعقاب الهي[2]

وانما سبب هذا التحريم داعي الادب والترفع عن عوائد الوثنيين[3] ولياقة الاجتماع الانساني التي تدعو الى توسيع نطاق القرابة والالفة

على ان الشريعة قد سمحت للاخ باخذ زوجة اخيه بعد موته بل اوجبت عليه هذا الاقتران اذا مات اخوه بغير اولاد ليقيم زرعاً لاخيه ويخلد ذكره[4]

---

(١) طالع في ذلك كله سفر الاحبار ١٨ على انه قبل الشريعة الموسوية كان الاقتران مع بعض ذوي القرابة جائزًا لقلة عدد الشعب اليهودي لاسيما على عهد الآباء. طالع تكوين ٢٠ : ١٢ فترى ابراهيم مقترناً باخته من ابيه دون امه ويعقوب متزوجاً ليَة وراحيل اختها (تكوين ٢٩) وعمرام متخذاً عمته فولدت له هرون وموسى (خروج ٦ : ٢٠)

(٢) طالع تكوين ف ١٩ و٢ ملوك ١٦ : ٢٢ (حزقيال ٢٢ : ١٠)

(٣) احبار ١٨ : ٣

(٤) طالع تكوين ٣٨ : ٨ وهناك معاملة غريبة الشكل تقوم بها امرأة

الفصل الخامس

المرأة

١ المرأة في العهد القديم عند اليهود

منذ خلق الله المرأة عرفها آدم شريكة له ومساوية في الحقوق والتمتع والحياة والمصير. اجل انها كانت خاضعة له وتابعة تدبيره لانه هو رأس الاسرة واليه مرجعها وعليه مسؤوليتها[١]. بيد انها في الشؤون البيتية الداخلية من نظام المسكن وتدبير الطعام وكسوة الاولاد وتربيتهم ونظافة البيت وادارة الخدم وعمل الاقتصاد فلها اليد الطولى والكلمة المسموعة[٢]. فكانت

الاخ المتوفى بغير ولد اذا رفض سلفها ان يأخذها امرأة فانها تصعد الى باب المدينة الى الشيوخ المجتمعين هناك وتقول قد ابى اخو زوجي ان يقيم لاخيه اسماً في اسرائيل ولم يرضَني زوجة . فيستدعيه شيوخ مدينته ويكلمونه في ذلك . فيقف ويقول اني لا ارضى ان اتخذها . فتتقدم اليه امرأة اخيه بحضرة الشيوخ وتخلع نعله من رجله وتتفل في وجهه وتقول هكذا يصنع بالرجل الذي لا يبني بيت اخيه . فيدعى في اسرائيل بيت المخلوع النعل (تثنية ٢٥)

(١) تكوين ٣ : ١٦

(٢) ١ ملوك ١ : ٢٤ وتكوين ٢٧ : ١٥ و٤ ملوك ٤ : ٩

تظهر امام الرجال حاسرة الوجه وتحدثهم وتجالسهم[١] وتستقبل الضيوف[٢] وترفع الدعوى الى مجلس القضاة[٣] . وتقوم بكثير من الخدم العمومية نظير النبوة . فهذه مريم اخت موسى ودبورة وحلدة ونوعادية وحنة[٤] . ومن النساء الشهيرات في العهد القديم من خلصت شعبها من الاعداء نظير يهوديت واستير (طالع سفريهما) . وكثيراً ما كان يُلجأ اليها في الشؤون العامة والخاصة[٥] . ويستشيرها الاب في زواج اولاده وتدبير اموره . ولذا كان يحبها محبة كبيرة[٦] . وهي كانت تعزيته وسلوته في الاحزان[٧] . وكفى بذكر ما جاء من وصف المرأة الفاضلة في كتاب الامثال دليلاً على منزلة المرأة في العهد القديم[٨]

---

(١) تكوين ١٢ : ١٤ و٢٤ : ١٦ و٢٩ : ١٢ و١ ملوك ٩ : ١١ وبعض الاحيان تصلح عمله كما فعلت ابيجائيل بعمل زوجها نابال طالع ١ ملوك ٢٥

(٢) ٤ ملوك ٤ : ٨ (٣) عدد ٢٧ : ٢

(٤) طالع خروج ١٥ : ٢٠وقضاة ٤ : ٤ و٤ ملوك ٢٢ : ١٤ ونحميا ٦ : ١٤ ولوقا ٢ : ٣٦

(٥) ٢ ملوك ١٤ : ٢ و٢٠ : ١٦ _ ٢٢ و١ ملوك ١٨ : ٦ _ ٧

(٦) طالع تكوين ٢٩ : ١٨ وكل سفر نشيد الاناشيد شاهد على ذلك

(٧) طالع تكوين ٢٤ : ٦٧

(٨) اننا لا نتمالك من ايراد نص الكتاب في وصف المرأة الفاضلة رغبةً في افادة قرائنا قال : « من يجد المرأة الفاضلة ان قيمتها فوق اللآلئ . قلب رجلها يثق بها فلا يحتاج الى غنيمة . تأتيه بالخير دون الشر جميع ايام

فيرى القارئ انه في هـذا الباب تفترق المرأة البدوية بعض الفرق عن اختها المرأة اليهودية وسبب هذا الاختلاف ما طرأ على شرقنا من اختلاف الاديان

٢ً في بادية العرب

المرأة عند العرب هي الكائن المتوسط ما بين الرجل والحيوان بل هي قنية من مقتنيات الانسان واذا رفعت منزلتها فقل انها الخادم التي تقوم بحاجاته البيتية كلها . وتخدمه الخدمة المخلصة . ولا يُحسب لها فضل ولا هي تطمع في مكافأة غير ذاك الكساء الذي يغطي جسمها وتلك اللقمة التي تتبلغ بها . فانها لا تدخل في شيء من امور السياسة ولا من شؤون العترة ولا من علاقات الحي ولا في تدابير الرجال من حل او ترحال او حرب او سلم او معاهدة او غزو ولا من صناعة او فلاحة او تجارة حتى ان اولادها يكادون يتزوجون وهي لا تدري . فانها محصورة في دائرة من اشغال البيت لا تخرج عنها . هي التي

حياتها . تلتمس صوفاً وكتاناً وتعمل بحذق كفيها . فتكون كسُفن التاجر تجلب طعامها من بعيد . تقوم في الليل وتعطي لبنيها اكلاً ولجواريها ما يكفيهن . تتأمل حقلاً فتأخذه وبثمر كفيها تغرس كرماً وتنطق حقويها بالقوة وتشدد ذراعيها . تذوق ما الذ تجارتها فلا ينطفئ في الليل سراجها . وتلقي يديها على المكب واناملها تمسك المغزل . تبسط يديها الى البائس وتمد يديها الى المسكين » (سفر الامثال ٣١ : ١٠ الخ)

تطحن الحنطة وتعجن وتخبز وترعى الغنم والبقر[١] وتجمع الحطب وتهيء الطعام وتحلب النوق والغنم والبقر وتعمل الزبدة والسمن وترد الماء وتسقي الماشية وتنقل الماء لخدمة البيت في قِرب تحملها على كتفيها من مورد بعيد . وتغسل وتنظف وتخيط اثواب زوجها واولادها[٢] وقد تستقبل الضيوف في غياب رجلها احياناً اذا كانت متقدمة في السن وتبرز امامهم وتحدثهم حاسرة الوجه وتكرمهم وتقدم القهوة وتنحر لهم وتسامرهم . وتساعد زوجها في الفلاحة والزراعة وتنقية الزرع من النبات الضار . ثم تتعب معه في الحصيد والدرس والرجاد وتلتقط من وراء الحصادين ان كانت محتاجة[٣]

وهي التي تغزل الصوف وتصبغه وتنسج منه اشياء كثيرة لخدمة بيتها . وتبيع ما زاد عنها مثل الخروجة والشوبندية (كساء للفرس) والعذار والزمام للخيل ومناطق للرجال واكياساً وشويحيات (نوع من الاكياس الدقيقة النسيج) والبسط والخيم من شعر المعزى او وبر الابل[٤] . الى غير ما عندهم من

---

(١) نظير رفقة في العهد القديم تكوين ٢٩ : ٦

(٢) كل ما تقدم ذكره كانت نساء اليهود قديماً يجرين عليه . طالع اسفار التكوين والقضاة والملوك ترَ آثار ذلك

(٣) كما فعلت راعوث طالع سفرها ف ٢

(٤) كذلك النساء قديماً عند اليهود كن ينسجن الصوف والكتان ويصنعن

انواع المنسوجات

وبعد هذا كله ان غضب عليها زوجها لاقل داعٍ فانه قد يطردها من بيته ويطلقها بغير ما معاملة في الدعوى غير كلمة تخرج من فيه . فترجع الى بيت اهلها ذليلة مقهورة . ولا ملجأ لها ان ضاق ذرعها في الصبر عند جور بعلها غير الهرب ايضاً الى بيت ابيها . وسواء طُلقت او هربت من تلقاء نفسها فلا حق لها على شيء من لدن زوجها . وباجمال الكلام ان المرأة عند العرب خلقت لخدمة الرجل لا غير

هذه هي حال المرأة عند الشعوب التي لم يشرق عليها نور الانجيل لان المسيح هو الذي رفع المرأة من سقطتها ورجعها الى مقامها الاول من مقارنة الرجل ومساواته ومشاركته في كل شيء تستطيعه . ولذا ترى المرأة المسيحية في بلاد العرب حتى في البادية وتحت الخيم غير بنت جنسها من الامم البدوية في كثير من الاحوال . بيد ان مجاورة تلك الامم قد أثرت كثيراً في اخلاق المسيحيين هناك وفي عاداتهم كما هو معروف[1]

منها اقصة ومناطق واردية لاهل البيت ولاجل المبيع طالع ١ ملوك ٢ : ١٩ والامثال ٢٢ : ٤٥ وف ٣١ وكن يغزلن ايضاً من السمنجوني والارجوان وشعر المعزى كما فعلن لاجل خباء المحضر لبيت الرب طالع خروج ٣٥ : ٢٥

(١) قال بولس الرسول « ان العشر الردية تفسد الاخلاق السليمة »

٣ الولادة عند العرب

تكون المرأة عند العرب حاملاً وتزاول اشغالها كالعادة من نقل الماء والحطب والحصيد والرجاد والرعاية ولا تبالي بتعب او عناء حتى عند الطَلَق والمخاض . ولقد تضع ولدها وهي في الصحراء او في الاسفار فتلفّ المولود الجديد بما يتيسر لها في ذلك الحين من منديل او طرف ثوب وتحمله على ظهرها بالعقيد (الكيس) الذي تعلقه برأسها[1]

وقد حكى لي احدهم ان امرأة بدوية كانت تحصد ذات يوم مع الحصادين . واذ شعرت بدنو ساعتها انفردت الى ناحية هناك ووضعت ابنها وخبأته في كومة تبن . ورجعت الى شغلها من الحصيد كأنها لم تجرِ شيئاً . وعند المساء حملت وليدها بطاقة التبن الى بيتها[2]

وفي اليوم التالي لولادتها تذهب المرأة الى شغلها على جاري عادتها فتحصد او تحطب او تعشب وطفلها في «العقيد»

---

(١) اما عند اليهود فيلفونه في لفائف حزقيال ١٦ : ٤ ولوقا ٢ : ٧

(٢) جاء في سفر الخروج ان فرعون اوصى قابلتي العبرانيات بان تقتلا كل بكر يولد لهن فلم تفعلا خشية من الله واجابتا فرعون معتذرتين: «ان العبرانيات لسن كالنساء المصريات فانهن قويات يلدن قبل ان تدخل عليهن القابلة » خروج ١ : ١٩

على رأسها خوفاً عليه من الكلاب او الوحوش الضارية . ولا ترضعه الا الصباح والمساء وفي الليل اي في حين فراغها من الشغل . فلا تكاد تهتم لطفلها اكثر من اهتمامها لبقرها او عنزها

كانت يوماً احدى النساء المسيحيات في حوران حاملة ولدها في عقيدها على رأسها وذاهبة وراء عنازها ترعاها في الصحراء . واذ وضعت واحدة منها جدياً فنزعت طفلها من العقيد ووضعت مكانه الجدي الجديد . ثم حملت ولدها راكباً على كتفها وله من العمر عشرة اشهر فقط الى بيتها والثلج يهبط عليها حتى غطى الولد . فلما وصلت بيتها دخلته فاصطدم رأس الطفل بعتبة الباب فوضعته من على كتفها وضربته بمجامع اصابعها على ظهره قائلةً له « يا مال الفجعة[1] » لانه لم يحن رأسه امام العتبة . اما هو فبكى قليلاً ثم لقي هناك على الارض كسرة خبز يابسة فاخذ يقرضها ملتهياً بها

ولكن لا يتبادرنَّ الى ذهن القارئ ان كل النساء في بادية العرب او في قرى حوران على هذه الحال من السهولة في وضع الاولاد واعالتها . بل هناك ايضاً قوابل ومعدّات للولادة تجري عليها النساء من اهل الحضر والمدر . فانه اذا حانت ساعة الولادة يدعون القابلة ثم يأتون بكرسي التوليد مزيناً بالزهور ومحفوفاً بمظاهر الفرح والحبور فتجتمع النساء من الاقارب والجيران .

(١) شتيمة عندهم

اما الزوج فيترك البيت عادة ولا يحضر ولادة بنيه[١]. فحينما تضع الحامل ترتفع اهازيج الفرح ولاسيما اذا كان الوليد صبياً[٢]. على ان البنت مرغوبة عندهم لخدمة البيت ولاجل «الفيد» ايضاً كما مرّ بك في باب الزواج . ولكن اذا كان الرجل يرتاب بامانة امها فانه لا يقبلها في بيته واما الصبي فيغض عنه الطرف[٣]

وعند ولادة البكر بل كل وليد من اولاد المشايخ والعظماء يذبحون الذبائح من جزور او شاة او معزى . ويسمونها «ذبيحة الفدى» للمولود الجديد[٤] . ثم يتوافد المهنئون[٥] واكثرهم من

---

(١) كذلك في القديم طالع ارميا ٢٠: ١٥ وبعد ذلك يأتي ويتناوله على ذراعيه او ركبتيه : ايوب ٣ : ١٢

(٢) ارميا ٢٠: ١٥ « ملعون اليوم الذي وُلدتُ فيه ملعون الانسان الذي بشر ابي قائلاً قد وُلد لك ابن ذكر وفرَّحه تفريحاً» ـ طالع ايضاً يوحنا ١٦: ٢١

(٣) عند جميع الامم بوجه الاجمال الابن مرغوب اكثر من الابنة والسبب في ذلك ان الابن يحفظ اسم ابيه ويسعفه عند شيخوخته اكثر من البنت بل ان هذه قد تكون سبباً لهمّ وغم كبير لوالديها . طالع ابن سيراخ ٤٢ : ٩ و١٠ . سُئل يوماً اعرابي كم عندك من البنين فاجاب : «قليل ردي» يعني بذلك ابنة واحدة لانه قال لا اقل من واحد ولا اردى من بنت . ومعروف ان بعض العرب قديماً كانوا يئدون بناتهم اي يدفنونهنّ حيّات خوفاً عليهن من العار ان يلحق بهن

(٤) هذه الوليمة كان يعملها اليهود قديماً عند الفطام ١ ملوك ١ : ٢٤

(٥) يقول المهنئون لابي المولود جديداً اذا كان صبياً « مبارك الوليد وان كان بنتاً فيقولون له : مبارك المهرة ... وان العرب يعتقدون ان

النساء ومعهن اطعمة او نوع من الحلواء[١] وتدور على المهنئين القهوة البيضاء وهي محلول القرفة ويضعون فيها اللوز والفستق وهـذا شراب خاص بالولادة . ان بعض العرب في حوران يغسلون المولود ببول البقر تطهيراً له وتقويةً لجسمه على ما يعتقدون وغيرهم يفركونه بملح للغاية نفسها[٢]

ثم يضعون اسماً للمولود الجديد قد يكون على اسم بعض المشاهير الحاضرين او اشارة الى حادثة مهمة قد جرت في ذلك الوقت او الى صفة من صفات الوليـد[٣] واليك بعض اسماء

المولود يرجع عادة في اغلب الصفات الى امه اكثر منه الى ابيه ولاسيما اذا كان بنتاً ولذا قد يخطب احدهم الابنة منذ مولدها استناداً الى صفات امها المشهورة . والابن يشتهر بخاله فيقولون هذا خاله فلان . والعامة تقول : «طب الجرة على تمها (فمها) تطلع الابنة الى امها »

(١) عند اليهود اليوم في بعض الجهات (مثل طبريا) تسهر النساء مع الام سبعة ايام على الولد خوفاً عليه من ابليس ان يأتي ويختطفه ويقوم مقامه على ما يزعمون !

(٢) كذلك كان يفعل اليهود قديماً طالع حزقيال ١٦ : ٤

(٣) على حد ذلك سُمي ولدا اسحق عيسو ويعقوب لان الاول كان اكلف اللون والثاني قد عقب اخاه طالع تكوين ٢٥ : ٢٥ وكذلك اكثر الاسماء في العهد القديم طالع تكوين ٣ : ٢٠ و٤ : ١ الخ . . تدل على صفة او تذكر حادثة

ويأتي العرب نظير اليهود الى كبير الاسرة كي يضع اسماً للمولود وهو ينقطه (يحبوه) بخروف او فرس او حصان طالع لوقا ١ : ٦٢

العرب من رجال ونساء على سبيل التفكهة

الرجال حتى المسيحيين : فرحان قبلان سليمان نعمان حاتم حسَّان حسن محمود سواده بسنان خربوش صباح صلاح جُريص وجريش طعمة مطر ذبيان بُرهُمْ وبرهوم عوض فرهر مفلح نهار غنيم شحيذ ايوب عقل عقيل عاقل عقيّل عقلة (وقد وجدتُ هذه الاسماء الخمسة الاخيرة في اسرة واحدة)

اسماء النساء حتى المسيحيات : شيخة دلة منة سارة زينة وزنة خداوشة ميمونة نجمة ستة زهرة نصيرة زهته لبَّة فدوى ندى مليحة قمشة خشفة سعدة تمام بيكة ميشا غانا غوثه فتنة نور حلوة رشدة زحيلة نمرة الخ[١] . . .

وهي الام لا غيرها ترضع ولدها وتنظفه وتعوله ولا تعهد في هذا الامر الى غيرها الا اذا كانت عاجزة عنه او مريضة[٢] . ويدوم الرضاع عادة سنة او اكثر[٣] . وقد رأيت

---

(١) كان عند اليهود اسماء كثيرة فيها نسبة الى الله نظير عبدالله وعطاالله وعونالله الخ طالع ١ ملوك ١ : ١ فيه اسم القانة اي قنيةالله . و٤ ملوك ٢٤ : ٨ يوياكين اي عطاالله او يوياقيم ارميا ٢٦ : ٢٢ ـ والعازار اي عونالله طالع خروج ٦ : ٢٣ الخ واسماء النساء من اسماء النبات او الحيوان نظير راحيل اي غنمة ودبورة اي نحلة ونعمي اي نعيمة (طالع سفر راعوت) وكانوا يقفون اسماً للولد إما يوم ميلاده او عند الختان طالع لوقا ١ : ٥٩

(٢) كذلك في العهد القديم خروج ٢ : ٨ و٤ ملوك ١١ : ٢

(٣) عند اليهود كان يستمر الى السنة الثالثة كما فعلت ام المكابيين

اولاداً يرضعون من ثدي امهم ولهم من العمر خمس او ست سنوات . على ان الفطام يصير عند الاعربيات عاجلاً لما يشغلهن عن رضاع اولادهن من خدمة البيت الكثيرة كما رأيت . وقد يقوم لبن العنز والبقر بسهولة مقام لبن الام . فقد شاهدت طفلاً يرضع من بز العنزة . ولا يقيمون يوم الفطام حفلةً الا نادراً ولاجل اولاد الشيوخ او الكبراء[1]

وعند العرب المسلمين يتم الختان او التطهير بابهة وحفلة كبيرة تكاد تضاهي عند الاغنياء حفلة العرس[2] . وتتم عادة عند اجتماع بضعة اولاد لهذه الغاية

اما عماد المسيحيين فليس فيه غير الحفلة الطقسية ثم وليمة

بابنها الصغير طالع ٢ مكابيين ٧ : ٢٧

(١) كما فعل ابرهيم لاسحق ابنه تكوين ٢١ : ٨ و١ ملوك ١ : ٢٤

(٢) والختان شريعة في العهد القديم انزلها الرب عن يد موسى كليمه طالع احبار ١٢ : ٣ وبمقتضى هذه الشريعة اختتن السيد المسيح طالع لوقا ٢ : ٢١ وعند اليهود لليوم ياتي الخاخام الطاعن في السن ويختن الولد في اليوم الثامن وهو يصلي والحاضرون يجيبون عليه : الوهيم الوهيم . ثم ينشفون الجرح ويذرون عليه ذروراً من سحيق حجر احمر يدعى « ملكا » ومن خشب مسوّس او غيره . بعد ذلك يتناول « العرّاب » الولد ويعطيه لابيه والاب الى الام . ثم ياخذ الخاخام طاقة من الريحان ويشمها ويشمها الوالدين والحاضرين رمزاً الى الخصب ويفرق على الجميع خبز اسبانيا (هذا في نواحي طبريا وصفد)

يولمها الاهل للكاهن والاصدقاء[١] اذا كان الوليد ذكراً

٤ً التربية عند العرب

لا مدرسة ولا تعليم عند عامة العرب الا عند بعض اهل الحضر في البلدان الكبيرة من حوران والبلقاء[٢] . وانما ينشأ الولد في البادية على الفطرة الطبيعية والسليقة الاصلية . فان كان الله قد حباه من السجايا الغريزية والاميال النفسية ما يسوقه طبعاً الى الصلاح والفلاح فقد نشأ هذا الولد على الخصال الحسنة والاخلاق الكريمة . والا فقد جرى في سبيل الرذيلة جري الفرس الجموح لا يرده شيء عن اتيان المنكرات الا الخوف من القصاص . هذا اذا لم يجد سبيلًا الى الافلات منه

على ان العرب لا يخلون في عامة احوالهم من مبادئ وتقليدات قديمة يتناقلونها خلفاً عن سلف ويجرون عليها . وهي

(١) في العماد عند الدورة ترفع النساء اصواتهن « بالزلاغيط » حتى في الكنيسة دلالة على الفرح وتفاؤلاً ليوم العرس . لذا في نهاية الحفلة يهنئ الكاهن والدي المعمد قائلًا « مبارك على اقبال العرس » . وهما يجيبانه : « بوجودك يا ابانا » على ما هو معروف

(٢) اما عند اليهود فكان يوجد مربون مخصوصون لتربية اولاد الاغنياء والملوك طالع ٤ ملوك ١٠ : ١ و٥ واما عامة الشعب فكان لهم مدارس يتعلم فيها الاولاد القراءة والكتابة وقواعد الدين بواسطة شذرات من الكتاب المقدس (طالع لوقا ٢ : ٤٦ ويوحنا ٧ : ١٥)

التي تهذّب اخلاقهم وتقوّم اعوجاجهم وهي مقياس الحكم عندهم وقسطاس التمييز بين الكيّس واللئيم

وها نحن نورد بعض هذه المبادئ وشيئاً من هذه التقليدات

عندهم اكرام الوالدين والخضوع لهما من اهم الواجبات واقدسها[١] . وقلَّ من يخرج عنها فيعقّ ابويه[٢] . فللوالد اولاً وللام ثانياً كل السلطة على ولدهما حتى لو قتل احدهم ولده لا يتعرض له احد في لوم ولا هو مسؤول عن ذلك امام سلطة[٣] الا سلطة الحكومة اذا امتدت صولتها عليهم . ولقد سبق القول ان الرجل اذا فاجأ ابنته او اخته او امرأته في فاحشة له ان يعدمها في الحال ولا دعوى عليهِ ولا تثريب[٤] . واذا اخطأ الابن في امر ذي بال قد تقوم عليه امه بالعصا وتضربه فلا يقول شيئاً ولو كان كبيراً او اميراً . وان هرب من وجهها وهي تلحقه فليس لاحد ان يردها عنه او يحمي المذنب[٥]

---

(١) حسب وصية الرب خروج ٢٠ : ١٢

(٢) فهو ملعون في العهد القديم طالع رواية حام تكوين ٩ بل انه يحكم عليهِ بالقتل ايضاً طالع خروج ٢١ : ١٥ واحبار ٢٠ : ٩ وتثنية ٢٧ : ١٦

(٣) كذلك على عهد الاباء قديماً طالع تكوين ٢٢ ضحية اسحق واما فيما بعد فحكم الاعدام على الابن العقوق اصبح منوطاً بشيوخ الجماعة : تثنية الاشتراع ٢١ : ١٨ — ٢١

(٤) طالع تكوين ٣٨ : ٢٤

(٥) كذلك في العهد القديم كانت تربية الابن منوطة بالوالدين ولاسيما

واولاد العرب عادة يبرّون بوالديهم مبرّة قلما تجد مثلها عند الامم المتمدنة . فانه لا يخرج الى سفر او الى غارة ولا الى مهمة من المهمات دون ان ينال رضى والديه اولاً ويطلب دعاءهما . وعند عودته اول من يقصد من الحيّ والديه ليعلمهما بما جرى له ويحمل لهما ما قد غنم . وعليه المثل العربي القائل : « ان قدمت من سفر فاهدِ لاهلك ولو حجرًا »

وان اراد الوالدان ان ينتقلا من محل الى آخر ولم يستطيعا الركوب على دابة فالابن يحملهما على ظهره . ويحكى عن ولد انه حمل اباه على ظهره مدة سبع سنين منتقلًا من مكان الى آخر كلما شاء الحيّ ان ينتقل انتجاعاً للمرعى وقد توقف عن الزواج ليقف نفسه على خدمة ابيه الى ان توفاه الله . حينئذٍ قصد إماماً واستفتاه هل اكمل واجباته نحو ابيه فاجابه الامام انه لم يتمم الا جزءًا من اربع وعشرين . عند ذلك بكى الابن البار بكاء مرًّا واخذ يوزع الحسنات عن نفس والده

اما الابنة فملازمة ابدًا لامها تسعفها في جميع اشغالها على ما وصفتها لك في بابه[1] . والفتاة قد تكون في البادية اكثر

الاب وآيات الكتاب في هذا المعنى وافرة جدًا طالع خصوصاً سفر الامثال ١٠ : ١٣ و٢٢ : ١٤ وابن سيراخ ٣٠

(١) فهي تستقي الماء للبيت وترعى الغنم طالع ١ ملوك ٩ : ١١ وتكوين ٢٤ : ١٥ وخروج ٢ : ١٦

حرّية في الخروج والدخول ومخالطة الناس منها في المدن[١]

ولقد رأينا ان زواج الشاب راجع عادة الى ارادة الابوين في تقريره وانتخاب العروس وتحديد المهر وفي جملة ما يتعلق بهِ

ولا يجوز للابن ان يشرب التبغ في حضرة والده ولو اصبح رجلًا كهلًا الى ان يبيح له ذلك . قد جرت العادة عند بعضهم ان يقدم الاب لابنه سيغارة بيده يوم عرسه . فمنذ ذلك الحين يشرب التبغ امام والديه . واذا اخلّ الولد باحد واجباته نحو ابويه فقد يطرده الاب من بيته فلا يلبث ان يعود تائباً ومصطلحاً . وان امعن في شروره فقد يحرمه الاب الارث او جزءًا منه

واولاد العرب يحترمون الشيوخ الطاعنين في السن ويكرمونهم اكرامهم لوالديهم[٢] واذا شاخ الوالدان او عجزا فانهم يقومون بخدمتهما دون سأم ولا كلل

والابن البكر هو الذي يخلف والده في المنصب والسلطة على اخوته واهل بيته ويقوم مقام والده في جميع شؤون الاسرة وقد تكون له السيادة حتى على عمومته فيما هو راجع الى تدبير شؤون العترة . فان غبن عمه في عقد او معاهدة مما يرجع الى اسرة اخيه واراد ان يحلها فانه يقول متخلياً عنها

(١) فانه في المدن تدعى البنات والنساء ربات الخدور طالع ٢ مكابيين ٣ : ١٩

(٢) جاء في سفر الاحبار ١٩ : ٣٢ « قم قدام الاشيب وكرّم وجه الشيخ »

« انا مكبور » اي انه يوجد من هو اكبر مني في الاسرة يعني ابن اخيه فله الامر والنهي في هذه المسئلة التي انا عقدتها فهي موثوقة او محلولة حسب ارادته

ويتعلم الابن من والده الفلاحة والزراعة ورعي الماشية وركوب الخيل والفروسية والغزو والسطوة والسرقة ايضاً من العدو . اما الذي يسرق جاره او صاحبه فيدعى عندهم « بوّاق » اي كذاب . وهو محتقر ومهان ولا تقبل شهادته في دعوى ولا يمكنه ان يتخذ زوجة من بنات الاشراف[١]

ورأس السجايا عند العرب ومما يجب على الابن ان يأخذه عن ابيه هو الكرم والبأس ولا يسود من الشيوخ الا من كان متصفاً بهما . فيتعلم الولد ذلك وغيره من مبادئ العرب ومحامدهم وتاريخهم وعاداتهم ومشاربهم بما يسمع كل ليلة في السهرات الطويلة وفي المجتمعات النهارية من احاديث القوم وما يمدحون وما يذمّون وما يرغبون وما يستهجنون . فينطبع ذلك في ذهنه وفي مخيلته انطباع الرسم في الشمع فينشأ على سجايا اجداده ويقتفي آثارهم . ولذلك تستمر التقليدات والعوائد بينهم من يوم عرفهم العالم الى اليوم فلا يكادون

---

(١) هذا خلاف قول شاعرنا :

والكذب ان القاك تحت العطب   لا خير فيه فاعتصم بالكذب

بمثل هذا كان يوصيني ابي

يغيّرون شيئاً منها على تقلبات الامم وتغير الحدثان

اما القراءة والكتابة ونتف من اصول الحساب فقليلون الذين يعرفونها واذا قصدوا اقتباس هذه المعارف فانهم يؤمون من يعرفها ويدرسونها على يده وهذا تقريباً كل ما يحصلونه من العلوم . على ان عندهم من الذكاء الطبيعي وجودة القريحة والاستعداد الوافي لاقتباس جميع العلوم والمعارف ما يؤهلهم لمباراة الامم الاوفر علوماً والارقى تمدناً لو تمهّد لهم السبيل الى ذلك . وان تاريخ الدولة العربية على عهد هارون الرشيد وخلفائه وتاريخ هذه الدولة نفسها في اسبانيا لهو اكبر شاهد على صدق قولنا

٥ صناعة العرب

تقتصر صناعة العرب على قدر حاجياتهم وهذه بالاجمال محصورة فيما لا يتجاوز الطعام والكسوة والمسكن . ولم تزل هذه الامور الثلاث كما رأيت في طورها البدائي البسيط . فالعرب يتعاطون عموماً الفلاحة والزراعة[1] . واراضي كل قبيلة

(١) واول صناعة خلق الله لاجلها الانسان انما هي الحرث والزراعة اذ فطر الانسان الاول ووضعه في الفردوس ليفلحه ويحرسه تكوين٢ واستمرت صناعة الفلاحة والزراعة مرعية عند اليهود منذ القديم طالع ٣ ملوك١٩ : ١٩ فان اليشع كان يحرث على اثني عشر فداناً من البقر لما دعاه ايليا النبي

بل كل حي او عشيرة من اهل البادية معروفة محدودة وانما هي بوجه الاجمال مشاعة ما بين افراد الحي كلهم . فيأخذ الواحد منهم قطعة مما يحسن له ويزرعها لنفسه . اما اهل الحضر فانهم مدة بعد اخرى يتوزعون الاراضي المختصة بقريتهم على القرعة وكل واحد يهتم بسهمه[١] . على انه من عهد غير بعيد قد ارادت الحكومة السابقة التركية ان كل امرئ يحتفظ لنفسه ما نال من قطع الارض بمعرفة الحكومة وتثبيتها وهذا ما يسمونه « التطويب » (او عمل الطابو) ويدفع عنها العشور او « الميري والويركو » فتم هـذا الامر في جميع اراضي العرب الحضرية تقريباً . وصار في وسع كل مالك ان يعتني بملكه فينقبه من الحجارة والشوك والادغال . على ان الفلاح العربي بوجه الاجمال متهامل ووني في شغله فلا يخطر له ان يزيد عـلى من تقدمه شيئاً في سبيل تحسين ارضه او زراعته . فقد يكون في حقله الذي يحرثه ويفلحه ويزرعه كل سنة الحجر الذي يعترضه في شغله هذا او تكون ارضه مملوءة حجاراً وحسكاً وشوكاً فلا

ليتبعه . وعزيا ملك يهوذا كان مهتماً كثيراً باعمال الارض كما يقول الكتاب ٢ من اخبار الايام ٢٦ : ١٠

(١) كذلك توزعت ارض الميعاد على اسباط اسرائيل وكل فرد نال سهمه من سبطه بدليل ما جاء في سفر الامثال ٢٢ : ٢٨ « ان لا ترح الحدود القديمة التي وضعها اباؤك »

يمد يده الى شيء من ذلك حتى يزيله من طريقه وينقي حقله . بل تستمر الارض على حالتها اجيالاً فاجيالاً (١)

وانما هو يتوقع الخصب من جودة الارض (٢) وبركة السماء بالغيث والشمس في اوقاتها (٣) ولذا اذا تأخرت او قلت الامطار يبادر الى الابتهال الى الله كي ينالها . ولهم في ذلك عادات غريبة اي عند انحباس المطر عن الارض تجتمع النساء في السلط من نصارى ومسلمات وكل اربع منهن تحت عباءة ويطفن في

---

(١) طالع وصف الكسلان في سفر الامثال ٢٤ : ٣٠ مررت بحقل الكسلان فاذا الشوك قد علاه كله والعضاد غطى وجهه وجدار حجارته قد انهدم

(٢) خصب ارض سوريا معروف عندنا ولاسيا ارض فلسطين ارض الميعاد حيث كان يدر اللبن والعسل · جاء في سفر التكوين ٢٦ : ١٢ ان اسحق زرع الارض التي نالها من ابيملك في جرار فاعطته مئة ضعف

وقد وصف الروح القدس تلك الارض قائلاً « فان الرب الهك مدخلك ارضاً صالحة ارضاً ذات انهار ماء وعيون وغمار تنفجر في غورها ونجدها ارض حنطة وشعير وكرم وتين ورمان ارض زيت وعسل لا تأكل فيها خبزك بتقتير ولا يعوزك فيها شيء ارضاً من حجارتها الحديد ومن جبالها تقطع النحاس » تثنية ٨ : ٧ ـ ١٠

(٣) كذلك كان اسرائيل يتوقع المطر من بركة الرب ومرضاته طالع تثنية ٢٨ : ١٢ وانحباسها من غضبه وانتقامه : « وتكون سماؤك التي فوق رأسك نحاساً والارض التي تحتك حديداً ويجعل الرب مطر ارضك تراباً وغباراً من السماء ينزل عليك حتى يبيدك » تثنية ٢٨ : ٢٣ واحبار ٢٦ : ١٩

المدينة مع البنات والاولاد ويغنين طالبات المطر بمثل هذه الابيات :

لازمة

يا الله الغيث غيثينا	بالشتيت[١] راعينا
راعينا الحسن الاقرع[٢]	له سنتين ما بيزرع
زرع شقارة[٣] طلعت بور	اكلها الزرعي مع الززور[٤]
راعينا اكل الجلة[٥]	بحسابه خبز مله[٦]
يا الله الغيث غياثه	دار الشيخ ضيافه
يا الله الغيث يا دايم	تسقي زرعنا النايم
تسقي زرع ابو (فلان[٧])	الي للكرم دايم
يا الله يا ابو الجود	تسقي زرعنا الموجود
تسقي زرع ابو (فلان)	يا الي للكرم والجود
يا ربي بل الشالة[٨]	ونحن تحت كيالة[٩]

---

(١) اي بالشتاء (٢) ذلك اسم راعيهن ولقبه

(٣) الشقارة شيء قليل من الزرع (٤) هما طائران

(٥) رجيع البقر (٦) خبز حنطة جيد

(٧) هو صاحب البيت الذي يغنين امامه فيسمينه باسمه

(٨) العباءة (٩) اي نشتري الحنطة بالكيالة

يا ربي بلّ الشرشوح[١]   ونحن تحتك تالي روح[٢]

راحت ام الغيث تجيب الرعود ما اجت الا الزرع طول القاعود[٣]
راحت ام الغيث تجيب الرياح ما اجت الا الزرع طول الرماح
راحت ام الغيث تجيب المطر ما اجت الا الزرع طول الشجر

وعند العين يقلن :

ياعين[٤] جيتك زائرة   وانا باموري حايره
كل القرايا فلحت   والسلط ظلت بايره

ولكن لا ينكر منكر ان شغل الفلاح متعب ومجهد ومتواصل معاً فلا يكاد ينقطع السنة كلها. ويزاوله بالاجمال كل اهل حوران والبلقاء، اما المالك بنفسه او بواسطة خدام. فالفلاح يبتدئ في الصيف فيشق ارضه ويحرثها مرتين وثلاث ثم في اوائل المطر يفلحها ليزرعها حباً ولا ينتهي من ذلك الا في اواسط فصل الشتاء لاتساع اراضيه . وعند الربيع يسعى في زرع الصيفي اي ما ينبت في الصيف مثل الحمص والذرة والسمسم . فلا يكاد يتممه حتى يحين اوان الحصاد من الشعير ثم الحنطة . وهذا الحصاد اوفر تعباً وجهداً من كل ما يعاني

(١) الراية   (٢) تالي روح اي على آخر رمق
(٣) الجمل الكبير
(٤) وعند كنيسة القديس جاورجيوس يقلن : يا خضر

الفلاح من العمل . بيد انه مفرح مبهج لما فيه من الكسب .
فيزاوله الفلاح بنشاط وارتياح ويؤازره فيه كل اهل بيته وخدمه[١]

---

(١) كذلك كان شغل الارض عند اليهود قديماً شاقاً ومتواصلاً . واليك خلاصته على ما جاء في كتاب الله الكريم : فانه يباشر الفلاح الاسرائيلي بشق الارض ثم يلقي البذار اشعيا ٢٨ : ٢٤ و٢٥ واذا كانت ارضه ذات ماء وزراعة فانه يسيجها طالع عدد ٢٢ : ٢٤ واشعيا ٥ : ٥ ثم يسوّي جداولها ليسقيها ايوب ٣٨ : ٢٥ وامثال ٢١ : ١ وقد تعلم ذلك في ارض مصر : تثنية ١١ : ١٠ ثم يضع عليها السماد والدمال ٤ ملوك ٩ : ٣٧ والمزامير ٨٢ : ١٠ وانواع المزروعات عند اليهود نظير التي في بلادنا من الحنطة والشعير والذرة والفول والحمص والعدس وسائر انواع القطاني ولا ننسَ الشونيز والسمسم والكمون والشبث الخ طالع اشعيا ٢٨ : ٢٥ قد منع الله في العهد القديم الخلط بين صنفين من البذار طالع احبار ١٩ : ١٩ . واذا حان اوان الحصاد يباشره الاسرائيلي بفرح

فيبتدئ بالشعير ثم الحنطة راعوت ٢ : ٢٣ ويقدم باكورة غلاله للرب احبار ٢٣ : ١٠ وآلة الحصاد عندهم هي المنجل نظير ما عندنا تثنية ١٦ : ٩ و٢٣ : ٢٥ وارميا ٥٠ : ١٦ ثم يجمعون السنابل طاقةً طاقةً حزماً حزماً مزمور ١٢٨ : ٧ واحبار ٢٣ : ١٠ وتكوين ٣٧ : ٧ وراعوت ٢ : ١٥ فينقلونها الى البيدر على عجلاتهم وعموص ٢ : ١٣ بيد انهم لا يحرصون شديداً على جمع كل ما يقع من السنابل بل يدعون شيئاً في طريقهم يلتقطه الغريب والفقير طالع سفر راعوت ٢ : ٢ واحبار ١٩ : ٩ وقد جاء ذكر البيدر في سفر راعوت ٣ : ٢ وميخا ٤ : ١٣ . ثم يباشرون درس الحنطة او القطاني على ثلاثة انواع اما بالنورج او دوس الدواب او العجلات او ضرب السنابل بالعصا طالع راعوت ٢ : ١٧ واشعيا ٢٨ : ٢٧ و٢٨

وخادم الفلاح عند عرب حوران والبلقاء يدعى « المرابع[١] »
لان اجرته تكون عادة ربع الغلة . فهو الذي يحرث ويفلح
ويزرع ويحصد وفي هذه المدة كلها يأكل وينام عند مستخدمه
وهو قد يحذيه ايضاً على ما سبق الاتفاق بينهما . وينهض
المرابع كل يوم من النوم قبل الصباح باكراً جداً ليذهب
الى الحراثة ويرجع عند الاصيل فيتم الحراث قبل اشتداد الحر

وفي وقت الحصاد يتوافد الغرباء والفقراء من اهل القرية
وما يجاورها من النساء والصبيان لاجل الالتقاط من وراء
الحصادين . وقد تلتقط المرأة في اليوم الواحد رطلين او ثلاثة
من السنابل ومنهن من تجمع مونتها للسنة كلها من الالتقاط[٢]
ثم يرجدون . وحين تكدس السنابل كلها على البيدر بالقرب
من القرية او المحلة يبتدئ عمل الدرس بنورج تجره الثيران
او الدواب على السنابل ويقف عليه او يقعد الاولاد او الرجال

فاذا خرجت الحبوب من سنابلها يذرونها ويسفونها بالمذرى عند هبوب
الريح كما يعملون في بلادنا اشعيا ٣٠ : ٢٤ ويحملون الحب نظيفاً الى
الاهراء حجاي ٢ : ٢٠ ولوقا ١٢ : ١٨ وتثنية ٢٨ : ٨ اما التبن فلطعام
الحيوان وعمل اللبن اشعيا ١١ : ٧ وخروج ٥ : ٧

(١) على ان كثيرين من اهل البادية لا يستنكفون من مباشرة اعمال
الفلاحة بايديهم مع مرابعيهم كذلك كان في العهد القديم طالع ١ ملوك
١١ : ٥ و٣ ملوك ١٩ : ١٩ و٢ اخبار الايام ٢٦ : ١٠

(٢) طالع سفر راعوت

تثقيلاً له وحثاً للدواب . وتكون عادة بيادر القرية بعضها بقرب بعض فيتغانى فيها الشبان على النورج وقد اتى بعضهم من بعيد فيذكرون اوطانهم وما فيها من الخيرات فينشدون :

يا غربتي طوّلت　　يا من يوديني
على ام العنب والتينِ　　واجيب معي رطلينِ
آكل واملي بطيني　　وافرّق على الدربينِ

وعند نهاية الدرس يجمعون الحنطة في « كوارات » اي خزائن من طين موضوعة في البيت والاغنياء يخزنون حبوبهم في ابيار تحت الارض . ثم ينقلون منها على الجمال الى المدن والقرى القريبة ويبيعونها . وعند ذلك يأتون الى نسائهم واولادهم بالاقمشة والاثواب وبعض المؤن التي ابتاعوها من المدن بثمن الحبوب التي باعوها[١]

ومن غلالهم السمن وكانوا قبلاً يصرفونه كله ـ وقد يبلغ القناطير المقنطرة ـ في بيوتهم وطعام ضيوفهم . اما اليوم فطفقوا يبيعون منه في المدن وينالون منه الاثمان الوافرة . فرعاية المواشي والسوائم من ابل وغنم وبقر وعنز من اهم اشغالهم

---

(١) لما كانت زراعة الارض من اهم اشغال بني اسرائيل في العهد القديم قد سنّ لهم الرب السنن والشرائع التي ينبغي ان يجروا عليها حفظاً للحقوق الفردية وتوسلاً الى الراحة و السعادة العمومية طالع سفر الاحبار والعدد وتثنية الاشتراع

واكبر مصادر ثروتهم[1] بل عليها وجدها قد يكون معتمدهم في معيشتهم اكثر الاوقات ولاسيما في البادية . اجل ان الاعرابي يقتات بالالبان او التمر ويكتفي مع هذا بقليل من الخبز . ومن ذبائح غنمه او بقره يقدم للضيف الكريم اذا وفد عليه ويأكل هو وعياله وقتاً بعد آخر

ومعظم الرعاة في حوران والبلقاء من العربان لانهم يحسنون الرعاية ويعرفون البلاد ومنبت الكلإ ومعهم تكون الرعية في مأمن من اغتيال العربان الذين من عشيرته او من المتحالفين معها[2] . وهو يحمي قطيعه من الوحوش بعصاته وبندقيته وبأسه[3] وجرأته . فانه يلازم قطيعه دائماً وينام معه في البرية

---

(١) كانت رعاية الماشية اهم اشغال الآباء قديماً طالع سفري التكوين والخروج وشاول نفسه كان يرعى البقر قبل انتخابه ملكاً طالع ١ ملوك ١١ : ٥ ومثله داود ١ ملوك ١٦ : ١١ ونابال الغني ١ ملوك ٢٥ وموسى كان يرعى غنم حميه يترو خروج ٣ . على انه لما استوطن بنو اسرائيل ارض الميعاد التي كانت تدر لبناً وعسلاً قد أقبلوا على الزراعة اكثر منهم على الرعاية وتربية المواشي . بيد انهم لم يكفوا عن احراز مواشٍ كثيرة نظير نابال الكرملي ١ ملوك ٢٥ : ٢

(٢) وكان عند اليهود الراعي الكبير الواقف على جميع الرعاة الصغار وهو يسلم الماشية الى هؤلاء . بعددها طالع تكوين ٤٧ : ٦ و١ ملوك ٢١ : ٧ ورسالة القديس بطرس ٥ : ٤ وارميا ٣٣ : ١٣ واخبار الايام ٢٧ : ٢٩

(٣) طالع ١ ملوك ١٧ : ٤ مثل داود امام جليات

صيفاً او شتاءً[1]. فاذا صال عليه وحش، ديباً كان او ضبعاً، نبهه الى ذلك الكلب الذي يتبع المواشي[2] فيهب اليه الراعي ويلحقه ولا يرجع حتى يخلص الخروف من انيابه[3]. وقد يكون الراعي الواحد على مواشي القرية كلها فيذهب بها صباحاً من مواطنها وعند المساء ترجع كلها معاً وعندما تصل الى البلد يسرب كل راس الى بيت صاحبه من تلقاء ذاته. وقد يجتمع في البادية رعيان ابل كثيرة فتختلط هذه بعضها مع بعض. فان اراد احدهم ان يفرز اليه ابله امتطى صهوة واحد منها يدعى « الصعدة » وينادي ابله فتتوارد اليه من كل جهة وتتبعه دون غيرها. وهو يسمي كل غنمة وعنزة او جمل او بقرة باسم يحكي صفة من صفاتها فيدعوها باسمائها ويميزها ما بين مئات او الوف غيرها[4].

---

(١) اما اليهود فكانوا يبنون الحظائر لماشيتهم عدد ٣٢ : ١٦ وحبقوق ٣ : ١٧ ويسهرون عليها ليلاً لوقا ٢ : ٨ وقد يرفعون الابراج في البرية لمراقبة اللصوص من بعيد فيهربون او يدافعون ٢ اخبار الايام ٢٦ : ١٠ وتكوين ٣٥ : ٢١ وميخا ٤ : ٨

(٢) طالع ايوب ٣٠ : ١ وقد قيل الويل للكلب الذي لا ينبح

(٣) طالع رواية داود ١ ملوك ١٧ : ٣٥

(٤) هذه بعض اسماء المعزى: « الاذون » طويلة الاذنين ـ « القرطاء » قصيرتها ـ السوداء. الصبحاء. الربعاء. البرشاء. حواء. وهي التي على حاجبها بياض او سواد الخ . . . واسماء الابل : الاوضح الاشعل (اي الابيض

واذا وضعت صغيراً على الطريق يحمله على كتفه[١] او على ذراعيه او في جرابه ويأتي به الى المبيت . اما اجرة الراعي فهي في السنة كلها ربع النتاج او اثنا عشر فطيماً على القطيع كله . ثم عباءة وحذاء وطعامه من صاحب القطيع او انه يأخذ نصف مد قمح عن كل راس من الغنم . ومداً عن كل بقرة[٢] وهذا يقوم مقام الطعام والكسوة

ويتاجر العربي بالملح فانه يجلبه من جبال بعيدة في البادية فيها الملح الجم ويبيعه في المدن والقرى بابخس الاثمان خلسةً عن معرفة الحكومة التي تحفظ هذا الصنف لنفسها . والبعض من اهل القرى يفتحون الدكاكين في بلدتهم ويجلبون اليها البن والسكر والارز والملح والاقمشة وما شاكل من اصناف المأكول والملبوس ويبيعونها اما بالدراهم واما مقايضةً بالحنطة او انواع القطاني . وقد تقدم القول ان النساء العربيات ينسجن

والاحمر « راعي خرطوم » . الطويل عنقه « اشهب ظهر » الكبير القوى « اقنعي » رأسه مرتفع الخ . . .

(١) مثل الخروف الضال لوقا ١٥ : ٥ ويوحنا ١٠ : ١٤ واما اعتناء الراعي برعيته فمشهور في العهد القديم طالع اشعيا ٤٠ : ١١ وتكوين ٣٣ : ١٣

(٢) كذلك كان في العهد القديم ينال الراعي اجرته من نتاج الماشية طالع تكوين ٣٠ : ٣٣ مثل يعقوب و١ كورنتس ٩ : ٧ ولا شك ان رعاية الغنم كانت متعبة جداً طالع تكوين ٣١ : ٤٠

من صوف الغنم او وبر الابل وشعر المعزى الاخراج المشكلة الالوان والاكياس والاعبئة والبسط والخيم ويبيعونها فيما بينهم او لاهل المدن

هذه اهم اشغال العرب من البدو والحضر . ومن عهد غير بعيد اخذت الحكومة البائدة بعض مشايخهم وكبرائهم وجعلتهم من عدد موظفيها توسلاً بهم الى امتداد سطوتها عليهم

الفصل السادس

في القبائل

١ القبائل عند العرب

منذ خلق الله الانسان فطره على محبة الاجتماع والائتلاف والتعاضد وعلى هذا الاساس الطبيعي عندما نما الجنس البشري وتكاثر عديده تألفت الجماعات والعشائر والقبائل والاقوام والامم تربط بعضها ببعض وحدة الاصل والجنس واللغة وتماثل الاخلاق والعادات واكثر من كل ذلك السلطة الواحدة والشرائع المعروفة نقلاً او كتابةً . فالاعرابي في باديته لم يكن ليخرج عن هذه السنّة العامة بل انه منضم الى حي وعشيرة وقبيلة يحيا فيها ويحامي عنها وتدافع عنه، يعزّ بعزّها ويذل بذلها

واليك اسماء اهم القبائل الموجودة اليوم في بادية سوريا مما اتصل لنا معرفته

١ في حوران

١ في اللجاء وما حواليها : العوران والرماح واللزوق والظهرية والحجارة والصوابرة والشيَّالة والجنوب والمراشدة والمزالجة والشرعة والفواخرة والزعران والغنايمة والحواضنة والجوابرة

٢ في جبل حوران : السردية والسوالمة

٣ في البادية : ولد علي والعنزة والنمير والمعجل والعيسى والصياغ والغياث والصفات

٤ في جبل عجلون : المزيد من بني فايز وبني صخر

٥ في الجولان : الفضل والنعيم

٢ في البلقاء

١ البلقاوية قرب عمان ومنهم الخنيطية، والدعجة، والونديين، والغنيمات، والثوابية

٢ بنو حسن (شمال السلط الى الشرق) وهم : الحرحشة، وبنوسمير، والخليل، والخوالدة، والزيود، والخراعلة، والشوحة

٣ العدوان : ومنهم النمر، والعساف، والقايد، والايوب

٤ العباد : ومنهم المناصير، والبقور، والجروم، والبازجين والفقهاء، والمهيرات وموطنهم شمالي السلط وجنوبها نحو وادي

السير ومنهم اصل اهل السلط

٥ المشالخة : في وادي الغور (الاردن او الشريعة) ومنهم العلاقمة، والديات، والشطة، والفاعور، والبلاوي

٦ البلاغنة : في الغور ايضاً الى الشمال ويتبعون حكم جبل عجلون خلاف من تقدمهم فانهم تابعون لحكم السلط

٧ الصخور : وهم شرقي ميدبا وعمان يبلغ عددهم نحو ١٥٠٠ بل اكثر ومنهم الجبور (وفيهم الخرشان والدهـام) والزين، والحامد، والهكيش، والجحاوشة، والغيالـين، والعيسى، والفايز وشيخ هذه العشيرة يحكم على الصخور كلها ويقال ان السردية فرقة من الصخور توطنوا جبل حوران

٨ الشرارات : وموطنهم شرقي السلط ويقال ان عددهم يبلغ ١٥٠٠ ومنهم الضباعين، والفليحان او اللجاوي . ان هذه العشاير الصغيرة قد يتغير اسمها بتغير شيخها فتسمى عادة باسمه

٩ الحمايدة : وهم بالقرب من الكرك

١٠ المجالي : وهم عرب الكرك اهل حضر ومدر

١١ الحويطات : كذلك وهم بالكرك

١٢ الحجايا : شرقي الكرك

١٣ السلايطة[1]

---

(١) اننا لم نذكر اسماء مشايخ هذه القبائل كلها وان كنا نعرفها لانها على الغالب يكون قد مات اكثرهم عند نشر هذه العجالة · والكبيرة من

في باديه نجب[١]

هي البادية الممتدة من بير سبع الى عريش مصر وجبل سيناء وهي تحتوي قبائل متعددة منها تابعة لحكومة فلسطين ومنها لحكومة مصر واليك اهمها

القبائل التابعة لحكومة فلسطين

١ الحناجرة الى شرقي خان يونس وهم خمس عشائر النباهين، وابو ذكرى، وحمدات والضواهرة، والنصيرات

٢ التياهة يقطنون حوالي بئر سبع ونحل وهم كثيرون منهم الظلام[٢]، والبدينات، وقديرات ابو رفيق، وقديرات العسم، والبلى، والجلمان، والحامدة، والهزيل، وعمارات ابو عبدون، وعمارات الاسد، وقديرات ابو قبلى، وقديرات الصانع، والعلامات، والشلالين، والقلازين، ورمضين المسامرة، ورمضين المليح، وبني عقبة، والانتوشة، وعيال عمري

هذه القبائل قد يكون لها شيخان الواحد لاحوالها الداخلية وادارتها والحكم فيها . والثاني بازاء الدولة عندما يكون لها علاقة معها . وقد كان احد هولاء المشايخ مبعوثاً في الاستانة في الدولة التركية وهو توفيق بن صالح شيخ مجالي الكرك

(١) عن كتاب (Coutumes des Arabes par le P. A. Jaussen)

(٢) هولاء يعدون اربع عشائر هم ابو ربيعة وابو قرينات وابو جويعد وجنابيت القشخر

٣ الترابين وهم من اقوى قبائل العرب واشهرها واسطاها يعدون ثلاث قبائل كبيرة تحتوي كل واحدة منها عدة عشائر:

١ً قبيلة النبعات تعد ثلاثة الاف بدوي وفيها ٣ عشائر : الحامدة، والكميلات، والحرارة : ٢ً قبيلة النجامات وهي تعد نحو ٤٠٠٠ رجل وفيها ٤ عشائر السينمات، والعواذرة، والصواصين، والصناع : ٣ً الغوالية وهي تبلغ نحو ١٠٠٠٠ نسمة وفيهم : الزريعين، والفريجات، والمغاصمة، والعمرات، والجراوين، والنعيمات، والقصار والوحيدات

٤ العزازمة يجولون في جنوبي بير سبع الى شرقي الترابين وفيهم عشائر عديدة هم : الفراحين، المحمدين، والمسعودين، والعصيات، والسراحين، والصبحيين، والصبحات، والصواخنة، والزربة، والمراعات

٥ الجبارات الى غربي بير سبع : وهم رتيمات ابو عدوس، ورتيمات ابوخضره، والفقراء، والدقوسة، والمنائعة، وابو مريغة، والخلاوين، والسعادنة، وسعادنة ابو المحسن، والسواركة، وعيال شاهين، وعيال سلمى، والمطارقة، والزيادات، والوحيدات[1]، وعمارات ابن عجلان، وعيال حمدانة، والعشيبات، والقلازين، والولائدة، والحسنات، وعمارين الرائمي

---

(١) غير وحيدات الترابين

التابعة لحكومة مصر

١ التياهة وهم اخوان المذكورين قبلًا بهذا الاسم لكنهم اقرب الى مدينة نخل في شبه جزيرة سيناء التابعة لحكومة مصر وهم الصبابحة، والنغامشة، والعوامرة، والبنيات، والعمور، والشتيات

٢ الحيوات الى الجنوب بالقرب من العقبة[1] وهم اصحاب الغارات الكثيرة . وفيهم : القصار، والمطور، والحمدات، والغراقين، والخواطرة، والخناطلة، والصفائحة

٣ الحويطات[2] وهم كثيرون مبثوثين ما بين السويس والعلو والعربة وعندهم نحو ١٢٠٠ هجين لاجل الغزو . ويعدون ست عشائر كبيرة هي : السريعين، والغنامين، والطقيقات، والسليمات والمذيرات، والشوامين، والدبور

٤ الترابين الحسابلة[3] وهم اخوان الترابين التابعين لحكومة فلسطين وفيهم : الحسابلة، والعطوط، والسبوع، والعراضية، والسرائعة، والمشيشات

---

(١) لهم سبعة عيون لمرعاهم وهي الثمد والحسى والكنتلة والملحان والغضبان والصدر والجفاجفة

(٢) عيون الحويطات هي غرندل حجية الجدي القيرة ومبعوق

(٣) عيونهم هي : الخبرة والقباب والمغارة والطوال والصورة والجديع والعين

٥ العيائدة[1] . يقطنون بالقرب من مدينـة العلو ومنهم : العيائدة، والصلاطمة، والفوائدة، والجرابعة، والقواعلة

وعرب الطوارة

لا شك ان هذه القبائل المتعددة ما هي الا جزء يسير من سكان البادية الواسعة الشاسعة التي تمتد من حدود اليمن الى تخوم حلب ومن الشام الى بغداد . وليس في علمنا ان قد تأتى لاحد ان يحصي عديدها كلها ولا حاول ذلك محاول ولم تستطع دولة من الدول التي رفعت رايتها على هذه البلاد ان تمـد سطوتها على جميع العرب الموجودين ضمن حدودها

بل الدولة الرومانية نفسها التي دوخت الارض كلها قـد وقفت امواج سطوتها عند حدود البادية مرغية مزبـدة . ولم تدخل جزيرة العرب . بل ان دولة الاسلام التي طوقت كل الشرق وبلغت قلب الغرب وادخلت دينها الى صميم قلب البادية فدان بها العربان كلهم على وجه الاجمال لم تخضع الى سياستها كل سكان الخيم ولم تتمكن دولة الاتراك الا من تهدئة جموع العرب الواقفين على حدود البادية لا غير . فمن عهد اسماعيل بن ابرهيم الى اليوم لم يفتأ بنو البادية نظير ابيهم هذا اسماعيل الذي ينتمون اليه يدهم على الجميع بغزواتهم ونهبهم وزعرهم

---

(١) وعيونهم ابو عروق والمقيرة والمرة

ويد الجميع عليهم بطردهم من البلاد المتمدنة ما داموا اهل سلب ونهب

ولا مراء ان جميع القبائل على اختلاف اخلاقها ومواطنها ترجع في نسبها الى اصل واحد. ثم تكاثرت مع الايام والاجيال وتفرقت وتميزت ثم صارت قبائل متعددة متحايزة بل متفارقة ومتحاربة على تقلب الاحوال والحوادث

اما اسماؤها فاغلبها آتٍ من اسماء اجدادها ومشايخها. وبعضها وهو القليل من مواقعها او من صفة من صفاتها[1] اما اراضيها ومواطنها فانها غير محدودة حدًا معروفاً انما هم يضربون ضمن مناطق كبيرة ويتقلبون فيها من ناحية الى اخرى وفقاً لمراعي ابلهم ما بين صيف او شتاء . وتحذراً من اقتراب عدو او طمعاً فيه

وقد تنقرض عشيرة بل قبيلة بجملتها الشيء بعد الشيء بمرض او فقر او بسيف عدو قوي . فينضم ما قد يتبقى فيها عدداً قليلاً الى قبيلة كبيرة تحميهم فيتركون اسمهم الاول ويتسمّون بها

---

(١) اني لم اتعرض الى ذكر شيء من اصلهم ونسبهم ما عدا اسماعيل الذي جاء ذكره في الكتاب المقدس لاني لم ارَ في اكثر رواياتهم عن اصلهم الا اساطير مختلفة متضاربة متناقضة لا تخرج عادة عن حدود الرجم والتخمين

٢ – الشيخ في البادية

الشيخ عند العرب هو سيد القوم وسلطان العشيرة . وله الامر والنهي في كلّ ما يرجع الى تدبير القبيلة ونظامها وادارتها وهو القاضي المطاع في الدعاوى والمنازعات . واذا حكم لا يستطيع عادة احد ان يخرج عن حكمه . وله ملء السلطة في تنقل الحي من محل الى آخر وفي الامر بالغزو او بالرجوع عنه . وقد يدعو قومه ان يقدموا الى غزو فيلبّون نداءه في الحال . وهو يسير امامهم فيتبعونه . وهم لا يعرفون وجهة الغزو . وعندما يرجعون رابحين للشيخ كل جمل اشهب الظهر اي الكبير القوي واحسن فرس واثمن غنيمة . وهو الذي يوزع بين الفرسان الغنائم ويعطي لمن حرس الحي نصيبه منها . وعند كل قضوة (قضاء) او بيعة او معاهدة اياً كانت او زيجة له شيء معلوم . وهو الذي يحمي العشيرة ببأسه وسطوته وفطنته وحكمته . ولا يكون شيخاً الا من اتصف بمثل هذه الصفات . والمشيخة عندهم بالتوارث . بيد انها قد تنزع عمن لا كفاية له عليها وتعطى للقدير الادنى اليه

واهم شيخ في العشائر يكون شيخ القبيلة كلها وتذعن له مشايخ العشائر المنتمين الى هذه القبيلة . ولهذا الشيخ الكبير سلطة مطلقة على الجميع حتى لقد يسلبهم شيئاً من اموالهم فلا

يقاومون ولا يحقدون . فهو يسنّ الشريعة ويحكم ويقضي وينفذ الحكم بالضرب والعقل والتغريم بالمال . فيتحمل المجرم العقاب دون ان ينبس ببنت شفة . وان عصى او تمرد فتقوم عليه العشيرة او القبيلة كلها . بيد انه ليس بوسع الشيخ ان يحكم بالاعدام على احد الا الامير العظيم بين القبائل المتعددة نظير ابن رشيد او ابن سعود فهذان قد يقضيان بالاعدام على القاتل وبقطع اليد على السارق

وعند ما يتوفى شيخ يقوم مقامه ابنه الاكبر . او اذا خُلع ونُصب مكانه من يليق بالامارة حينئذٍ يقوم بالحي منادٍ يهتف قائلاً : « الحاكم فلان والرب الله »

وهو الشيخ الذي يقبل الضيوف عادة في خيمته الكبيرة الممتازة عن سائر الخيم بوسعها وزينتها . ولا تكاد تخلو من الضيوف ولا من الذبائح يوماً واحداً . حدثني احد العربان عن الامير ابن رشيد قال انه ينحر كل يوم جزوراً (جملاً) صباحاً او مساء ويطبخه بحلة كبيرة دون ان يقطع الا رأسه وقوائمه . ثم يُخرَج منها بكلاليب من حديد ويوضع بجملته على المنسف وفيه يقطعه للآكلين خادم بسيف كبير فيأكل منه المئات من الضيوف وابن رشيد جالس على منصته ينظر اليهم ويجاملهم بالكلام

الفصل السابع

في القضاء

١ – القضاء عند العرب

ان البادية على وسعها وتفرق العربان على وجهها وتشاغل كل واحد منهم « بحلاله » (اي بمواشيه) وزرعه وغزوه تنفي عادةً كثرة وقوع الجنايات والتعديات والمنازعات فيما بينهم . بيد ان الاعرابي نزق الخلق حادّ الطبع عادةً لم يألف في حياته الشاردة الاذعان الى شريعة غير شريعة مطامعه واميالـه ولولا تلك العوائد التي تسود فيما بين القبائل[1] وتجعل لهـذه المطامع والاميال الجامحة حدًا هو حد العدل والصواب ولولا اضطرار كل اعرابي ان يخضع لحكمها والّا لقام في وجهه كل اهل قبيلته واقتصوا من تمرده لكانت هذه القبائل على تعدادها وتنافرهـا من بعضها اشبه بأسراب وحوش ضاريـة تأكل بعضها بعضاً ولا تلبث ان تتفانى

على ان هناك في البادية محاكم وقضاة وشرائع تقود العربان بزمام وتنشر بين ظهرانيهم راية العدل والنظام والراحة وها نحن نسرد لقرائنا بيان القضاء عنـد العرب ونصف لهم كيف تُحسم

(١) ويسمونها « السوادي »

المشاجرات عندهم ويقتص من المذنب فنتكلم عن القاضي وعن المدّعي والمدعى عليه والكفيل والشهود وعن فحص الدعوى والبتّ فيها

ولا يخفى على اللبيب ما في هذا المبحث من اللذة والفائدة. ولاسيما اذا قابل ما بين هذه المحاكم البدوية ومحاكمنا المتمدنة

٢ً القاضي

يكون في كل قبيلة بل في كل عشيرة قاضٍ معروف لحسم المشاكل والنظر في الدعاوي التي ترفع اليه وقد يكون شيخ العشيرة نفسه اذا اجتمعت فيه الصفات الضرورية لهذا المنصب وهي النباهة وسداد الرأي والتضلع من عوائد العرب والذاكرة الواسعة الجامعة لكثير من الحوادث والاختلافات التي تجري عادة بين العرب وكيفية الحكم فيها ثم طول الاناة والتأني والحلم في استماع الخصمَين والصبر على حدّتهم وجفاء اخلاقهم واخيراً الحزم والعزم في بتّ الرأي وحسم الخلاف. ولا يخلو ان تجتمع هذه الصفات في رجل من بني البادية فهو الذي يقام في العشيرة قاضياً. فيجلس في خيمة الشيخ او يقيم في خيمته ويتوارد اليه المتنازعون من اهل قبيلته ومن غيرها. وليس من شريعة توجب على المتخاصمين ان يرجعوا في حسم دعواهم الى

القاضي المقام لهذه الغاية بل لهم ان يصطفوا من يشاؤون حكماً فيما بينهم سوآء كان في قبيلتهم او في سواها . ولا يندر ان يكون هذا الحكم احد افراد العرب ممن يعتقدون فيه سداد الرأي والنزاهة فيرتاحون لحكمه ويخضعون له ولو كان راعيَ غنم

على ان الصعوبة لهي في الاتفاق على القاضي فقد ينتخب احد الخصمين من لا يرضى به الثاني فلدى وقوع هذا الاختلاف قد عمدوا الى وسيلة لطيفة بها يقعون على حكم واحد . وهي ان المدعي يسمي اولاً من يريد من القضاة . ثم للمدعى عليه ان يسمي غيره ثم يعود الاول فينتخب قاضياً ثالثاً عند ذلك يرجع المدعى عليه فيسقط واحداً من الثلاثة ثم المدعي ينتخب واحداً من الاثنين وهذا يكون القاضي المتفق عليه فهذه الخطة في الاتفاق على القاضي تدعى عندهم « خط القاضي »

ويوجد عند العرب قضاة مشهورون بالنباهة والذكاء والحصافة وسداد الرأي يصيبون كبد الصواب ويجلون عن الحقيقة ولو توارت ما بين غوامض الكلام ويحلّون المشاكل الاشد تعقداً فيقصدونهم من اطراف البادية ولا تكاد تخلو خيمهم من اصحاب الدعاوى والمستفتين و كلهم يخرجون من عندهم خاضعين مذعنين لحكمهم ولو كانوا غير راضين . فمن هؤلاء القضاة المشاهير عند الصخور والحميدية محمد بن رجب

وكلال بن فايز ومحمد ابو بريص وسليمان ابو ربيحه وسالم الخطيب وعند العجارمة : سالم بن صوان

نباهة بعض القضاة

ويحكى عن نباهة بعض قضاة العرب ما يجدر ذكره هنا تفكهة لقرائنا وبياناً لذكاء العرب وتوقد ذهنهم وحصافة رأيهم . قال: كان لاحدهم امرأتان قد ولدتا في اسبوع واحد فوضعت الواحدة غلاماً والثانية بنتاً . وبعد قليل توفيت الابنة . فما كان من والدتها الا ان وضعتها سرًا في فراش ضرتها واخذت الصبي وادعت فيما بعد انه لها . وبعد منازعة طويلة رُفع الامر الى احد القضاة المشهورين . ولم يكن من شاهد على حقيقة الحال لان الامرأتين ولدتا في البادية في غيبة زوجهما ودون قابلة ولا جارة. فاعمل القاضي الفكرة ثم طلب حليب الامرأتين وفحصهما فميز حليب ام الصبي من حليب ام البنت فوجد الواحد اضعف من الاخر . فقضى بارجاع الغلام الى امه الحقيقية (١)

ويحكى ايضاً ان اعرابيين انتجت فرسان لهما في ليلة واحدة فوضعت الواحدة مهرة والثانية مهرًا ولما ان مات هذا

---

(١) عن رسالة من حضرة الخوري بولس خوري بإيجاز وهنا نؤدي واجب شكرنا لحضرة الاب المذكور لما افادنا عن بعض عوائد العرب

بعد قليل اخذت كلتا الفرسين ترضعان المهرة على حد سوى . فادعى احد البدويين زوراً ان المهرة له ورفعا امرها الى قاضٍ مشهور بنباهته وحذقه ولم يكن للمدعيين من شهود لاثبات الحقيقة او بيانها

ففكر القاضي قليلاً ثم قال لهما : ان في الغد يقضي بينهما . وفي الغد اتوا بالفرسين والمهرة الى بركة ماء هناك فامر القاضي ان يضعوا فيها المهرة . ثم ابعد الفرسين الى مسافة منها وبعد قليل اطلقوا سبيل الواحدة فاتت نحو البركة واخذت ترعى على حفافها دون ان تبالي بالمهرة التي تصهل لها . وعندما اطلقوا سبيل الثانية جرَت عدواً نحو فلوتها وخاضت عباب الماء حتى دنت منها وصارت ترضعها وتلحسها فعرفوا للحين انها هي امها واعيدت الى صاحبها

ومثل هذه الحكايات كثيرة عند العرب يروونها عن قضاتهم المشهورين وهي حقيقة كانت ام مختلقة تبين اعتقاد العرب في قضاتهم الحصافة والنباهة وسداد الرأي[1]

---

(١) على انه قد يخفى عليهم وجه الحق احياناً واليك هذه الفكاهة : ادعى رجلان حق الخوة اي السيادة على احدى القرى فقال الاول منهما للقاضي انه من يوم بُث ترابها ونعق غرابها هي لي ـ وقال الثاني : انه من يوم هبت ريحها ونبت شيحها هي حق لي . حينئذٍ اجابهما القاضي : احيلكما الى ابينا ادم حتى يقضي بينكما

وهذه الصفات تكون اولاً غريزية في نفس قاضي العرب ثم تزداد بمزاولة القضاء او الوقوف على يد مشاهير القضاة على حد ما يفعل طلاب الحقوق والشرع في الحكومات المتمدنة .. فانهم يطالعونها اولاً في المعاهد العلمية والمؤلفات الموضوعة لها . ثم يلازمون مدة من الزمن بعض مشاهير الاساتذة حتى يأخذوا عنهم الدربة والحذاقة . فابن القاضي عند العرب يأخذ عن ابيه بطول العهد لاستماع فتاوى والده معرفة الشرع العربي ويحفظه لا في سجل او كتاب بل على ظهر قلبه ويباشر احياناً تحت مراقبة ابيه حلّ بعض المشاكل الصغيرة حتى يصبح نظير والده وقد يفوقه . ولذا تكون القضوية عادة بالوراثة عندهم

٣ كيفية القضاء

اليك الآن هيأة المحاكم البدوية وكيفية القضاء فيها :

يقف المدعيان امام القاضي في مجلس حافل قد يجمع الشيخ وبعض اعيان العشيرة وعدداً من المتفرجين وكثير ما هم عند العرب لقلة اشغالهم ووفرة فضوليتهم . فيقول المدعي للقاضي مثل هذا الكلام . « وايش[1] عندك يا قاضي العرب

---

(١) اي شيء

يا فكاك النشب[١] جيتك (اي جئتك) صدّي[٢] بحكي جدّي[٣] حظي وحظك يدخل على ٤٤ نبي[٤] ان كميت[٥] تضرك وان حكيت تسرك . تسرح مع حلالك[٦] وتروّح على فراش عيالك[٧]

وغيرهم يقول: « وايش عندك يا قاضي العرب والله فكاك النشب من عندك ومن عنده القضاة ومن شاف[٨] حق الله ما اخفاه . واليوم بين عينيك وباكر بين متنيك[٩] والله الّي قطّر عليك[١٠] . تسرح مع حلالك وتروح على عيالك تطلع على العرس وتحدر على الفرش، بالولد[١١] الفالح والمال السارح من زرك لحذاك ومن مقضبك لعصاك عند ما تقول يا الله . بحلابات الحليب ونثّارات العسيب[١٢] والحامل وما تجيب[١٣] تعطيني حق القضية[١٤] كل شي بان عليك وغبي علي[١٥] »

---

(١) القاضي في المال (٢) قاصداً

(٣) اقول بجد (٤) تحت مراقبة وحراسة ٤٤ نبياً (٥) ان اخفيت الحقيقة (٦) مواشيك (٧) ترجع الى بيتك

(٨) نظر رأى (٩) اي ان الله اليوم حاضر امامك وغداً عند الموت يقف على ظهرك ليدينك (١٠) اي الذي انزل المطر عليك (١١) الباء هنا للقسم اي يستحلفه بولده وماله وبقامته كلها من زره الى حذاه ومن كف يده الى عصاه حين يتوكأ عليها ويقول عند شيخوخته : يا الله

(١٢) حلابات الحليب هي المعزى والبقر والنياق ونثّارات العسيب هي الخيل لانها تنثر عسيبها اي تهز ذنبها (١٣) والحامل وما تجيب اي امرأته الحامل والولد الذي تلده والواو للقسم (١٤) اي القضاء الصحيح الحق

(١٥) اي خفي علي

والمدعي عليه يقول العبارة عينها للقاضي . حينئذٍ يباشر هذا فحص الدعوى . بيد انه يطلب اولاً الرزقة والكفيل ثم الشهود . والرزقة هي الجعل او المكافأة على تعبه . ولا يبتدئ العمل حتى تكون بين يديه . وهي عادةً نقود او ملبوس او ناقة او سلاح

اما الكفيل فلا بد منه لتنفيذ الحكم . وينبغي ان يكون من ذوي المقام والمقدرة ليجبر مكفوله على تتميم ما يحكم به عليه او ما وعد به . ولا بد لكل معاهدة او معاملة رسمية من كفيل يكفل صحتها او تتميمها الا اذا كان صاحبها من ذوي المكانة ونفوذ القول[1] وقد يكون هذا الكفيل من نفس القبيلة او من غيرها . وله جعالة او مكافأة من مكفوله

فيقدم كل من المتخاصمين كفيله ويعد بالاذعان للقضاء . ثم يبرز الشهود ويجب ان يكونوا غيرَ واحد[2] ويجب ان يكون الشاهد معروفاً معتبر الشهادة ليس من « الهاملين » اي الساقطي الشرف والادب ولا من الذين خفروا بكلامهم او بضيوفهم او خانوا وطنهم او دخيل خيمتهم . وقد يكون العبد والخادم

---

(١) الكفيل او الكافل موجود عند اليهود قديماً وقد وصى به الكتاب المقدس (طالع ابن سيراخ ٢٩ : ٢٠ الى ٢٤)

(٢) على فم شاهدين او ثلاثة تقوم كل كلمة وقد كتب في ناموسكم ان شهادة رجلين حق (يوحنا ٨ : ١٧

والمرابع شاهدين اذا كانوا محمودي السيرة . اما المرأة فلا تعتبر شهادتها عادة بل عيب عندهم ان يلجأ الى شهادتها . وكانت قديماً شهادتها تحسب بشهادة « نصف رجل » على ما جاء في القرآن في سورة البقرة ٢٨١ اذ اوصاهم ان يبرموا العهود والعقود امام شهود دفعاً للنزاع قال : « واستشهدوا شهيدين من رجالكم فان لم يكونا رجلين فرجلٌ وامرأتان ممن ترضون من الشهداء »

والشاهد على نوعين الشاهد الحاضر (الواقف على رجليه الشايف بعينيه) كما يقولون اي الشاهد العيان ثم الشاهد المشهَّد او « المهزز الاكتاف » اعني الذي استلفت احد الخصمين انظاره عند وقوع التعدي حتى يشهد له عند المحاكمة . فهذا يجب عليه ان يؤدي شهادته كما عاين ورأى دون مكافاة ولا جعل ولو حضر من بعيد وتعطل شغله ليؤدي الشهادة . اما الاول فان اراد شهد وان لم يشأ ليس بوسع احد ان يضطره الى تأدية الشهادة ، وان اتى بها يحق لهُ الجزاء من قِبل من دعاه . اما الشهود الكذبة فقليلون عند العرب من اهل البادية . وقلما تجد عندهم ما تجده عند بعض العرب من اهل الحضر اولئك الذين يبيعون ضميرهم وشرفهم بقليل من الدريهمات فيؤدون شهادة الكذب ويثبتونها بالأيمان المعظمة مما يدل على سقوط نفس وضياع دين

اما في البادية فلا يُقبل مثل هذا الشاهد بل ان القاضي

يبحث بدأة بدء عن صدقه ونزاهته فيقول للمدعي « اذا كان عندك الرجل الّي اذا اقبل[1] ما انكر[2] وان اقصى ما عكر[3] » فيجيب المدعي نعم ويقدم الشاهد . فيسأل القاضي عنه الشيخ الحاضر قائلاً « وايش تقول يا شيخ (فلان) عن فلانٍ يُقبل امّا لا - فان كان الشيخ يعرفه صادقاً نزيهاً اجاب قائلاً عنه : « والله اني ما انا خابر فيه الزارب الي يزربه عن الشهادة[4] » . عند ذلك يقبله القاضي ويطلب منه اليمين . فيتناول الشاهد عوداً من الارض ويرفعه بيده قائلاً : « وحياة هالعود (هذا العود) والرب المعبود والكاذب ما له مالود (مولود[5]) لا طمع راجيه ولا غيظ شافيه[6] الا حق الله من رقبتي مدّيه[7] . ان هذا الرجل (ويدل الشاهد عليه) هو كذا و كذا ... » مبيناً ما قد رأى او سمع او عرف عنه مما يخص الدعوى انه غير مغابش (اي غير مخادع او متعمدٍ) ثم يتقدم بقية الشهود من المدعي والمدعى عليه . وكل منهم يبرز اليمين على الصورة المذكورة ويأتي بما عنده

بعد ذلك ينعم القاضي النظر في الدعوى فان ظهر له الحق

---

(١) اي اذا تقدم (٢) ما انكر الحقيقة

(٣) وان ابتعد ما عكر صيتهُ وشرفه بمينه و كذبه

(٤) اي لا ارى فيه مانعاً يمنعه عن تأدية الشهادة الصحيحة

(٥) اي لا يبقى له ولد (٦) اي لا يحملني على الشهادة طمع في مال ولا تشفٍ من ثأر او عداوة (٧) اي مؤدّيه

فيها حكم للحال وهذه هي العادة، او أجل الحكم الى اليوم التالي . وقلما يتأخر عن البتّ في الدعوى اكثر من ذلك خلافاً لما هي عليه الحال في محاكمنا المتمدنة التي بمماطلتها الغير المتناهية تميت الحق وتمنع الخلق عن طلبه في الدعاوى ولو اصابهم الضرر الجسيم والجور العظيم

وبعد ابراز الحكم يجب على المتداعيَين ان يقفا عنده ويعملا بموجبه . وان تأخرا عن الانجاز وجب على الكفيلين ان يضطراهما الى ذلك . على انه يجوز لهما ان يرفعا دعواهما الى قاضٍ آخر او شيخ اعلى ولكن لا يتجاوزان اكثر من ذلك . فلا يبقى لغير الراضي الا الاذعان وتأدية ما حكم به عليه . او ان يهرب من وجه العدالة فيجلو باسرته كلها الى محل بعيد لا يتوصل اليه فيه خصمه

٤ً القصاص

القصّاص عند العرب هو قاضٍ مختص بالدعاوى الجنائية نظير الضرب والجرح او مجرد الاهانة وليس من مانع يمنعه ان يكون هو نفس القاضي الذي يحكم في بقية الدعاوى[1] . لكنّ

(١) القصّاص في اللغة هو الذي يقص القصص والاخبار اي يحدّث بها في مجتمع . ويطلق ايضاً على الذي صناعته قص اوبار الجمال او صوف الغنم ونحو ذلك . بيد ان بعض القبائل الرُّحل المجاورة لسوريا تستعمله في المعنى المذكور في النص هنا مأخوذاً من الذي ينظر في امر القصاص اي العقاب ويفرضه على الجاني . قال بعض كتب اللغة : «ثم غلب استعمال القصاص في قتل القاتل

الغريب في مثل هذه الدعاوي هو القصاص او التعويض الذي يأمر به القصَّاص على من اوقع في شخص قريبه جرحاً او بترًا في بعض اعضائه او رضرضة في عظامه . واليك لائحة هـذا التعويض او القصاص[١]

يؤدى عن قلع العين الواحدة نصف دية الرجل اي نحو ٢٠٠ ريال مجيدي وعن العينين معاً الدية كلها اي ٤٠٠ ريال وعن اليد المقطوعة ٢٠٠ ريال وعن اليدين معاً ٤٠٠ ريال اي دية الدم كلها . وعن الساق الواحـدة اذا قطعت ٢٠٠ ريال وعن الساقين معاً ٤٠٠ ريال[٢]

اما الجراح فالقياس فيها اذا وقعت على الوجه ان يبتعـد القصاص عن المجروح ماشياً القهقرى الى ان يحسر النظر عنه ثم يعدَّ ما بينه وبين المجروح من الخطوات ويقضي على المعتدي بدفع ٣٠ او ٥٠ غرشاً عن كل خطوة . واذا وقع الجرح على الساعد او الساق او الظهر الخ فقياسه الحصاة . فيأخذ القصاص ما دق من الحصاة على قدر حبة العدس ويجعلها بجانب الجرح الواحدة تلوَ الاخرى حتى توازي طول الجرح ثم يطرح نصفها

وجرح الجارح وقطع القاطع ... وفي التعريفات القصاص هو ان يُفعـل بالفاعل مثل ما فعل »

(1) Coutumes des Arabes par le P. A. Jaussen p. 185

(٢) عند غيرهم من العرب تبلغ دية القتيل ٣٣٠٠٠ غرش او اكثر من ذلك . وعلى نسبتها تزداد دية الكلوم وتعطيل الاعضاء

وياخذ النصف الباقي ويعدّه فيدفع المجرم عن كل حصاة منها خمسين غرشاً للمجروح . على ان القصّاص قد يخرج عن هذه التقييدات كلها ويعتمد على حكمته وفطنته في سبر الجرح من طول وعرض وعمق وموقع ويأمر بالدية او التعويض بما يقابل الضرر تقديرًا . وكذلك الحكم في الضرب ورضرضة العظام . اما طلق الرصاص فقد يدفع المجرم عن كل جرح في الجسم الف غرش اذا لم يقع هناك ضرر جسيم

ويعوض عن كسر الاسنان المتقدمة في الفم خمس مئة غرش عن كل واحدة من هذه الاسنان الاربعة وعن كل واحدة من البقية مئة او مئتي غرش . كذلك الاهانات من شتم او مسبة او تعيير فقد يُحكم على من اتى بها بتعويض على قدرها[١]

اما قصاص البواء او الكفوء والمعادلة اي السن بالسن والعضو بدل العضو فهذه الشريعة التي كانت عند اليهود قديماً هي غير جارية عند العرب عادة[٢]. لكن عامة العرب يقتصون

(١) شتم احدهم بدوياً بقوله له : لعنك الله يا عبد ابن عبد فحكم عليه الشيخ بدفع مبلغ من المال . وعند الشرارات إن رفع احدهم عصاه على احد مهولاً يدفع له جملاً تعويضاً عن هذه الاهانة

(٢) واليك من احكام العهد القديم بعض ما يقابل احكام العرب في ذلك . قال سفر الخروج (ف ٢١ : ١٨ و١٩) : « اذا اختصم رجلان فضرب احدهما صاحبه بحجر او لكمة فلم يمت بل أُلقي في الفراش فان قام ومشى خارجاً على عكازه فقد برئ الضارب، غير انه يعطيه أرش عطلته

لانفسهم ممن اعتدى عليهم ولا يُنكب عن ذلك عادة الا الضعيف الجبان . على انه بعد هذا الانتقام الشخصي وتشفّي سورة الغضب يرجع الخصمان الى القاضي او القصاص المذكور حتى يصلح بينهما ويزيل العداوة والحقد

واليك في الختام بعض انواع من العقوبات جارية عند بعض القبائل . فمنها نتف اللحية او حلقها على هذه الصورة : يوثقون يدي المذنب ويطرحونه على الارض عند باب الخيمة ثم يطلون لحيته ويمرغونها بعجين الحنطة ويتركونها حتى تيبس ثم يأتون بجدي ليأكلها فيأخذ الجدي وينتش شعر لحيته كلها ـ او يحلقون احياناً نصف لحيته ويتركون النصف الآخر

قد سرق احدهم علب حلواء فأمسك ودهن وجهه وصدره بقطر السكر واوثق الى شجرة هناك فحامت عليه الزنابير ولسعته وبقي عاري الصدر معرضاً لها على هذه الحال مدة النهار كله ـ وفي بعض الجهات يُردّ المسروق اربعة اضعاف مثله بل اربعين ضعفاً

ثم ان شئت ان تعرف ما كان جارياً من ذلك قديماً عند اليهود فطالع الفصل الثاني والعشرين من سفر الخروج ففيه

(اي بدلها وما يقابلها) ويُنفق على علاجه » ثم يقول ايضاً (في ف ٢١ : ٢٣) : « وان تأتى ضرر تبي. نفساً بنفس وعيناً بعين وسناً بسن ويداً بيد ورجلاً برجل وكياً بكي وجراحة بجراحة ورضاً برض » وتجد هناك غير ذلك ايضاً من الدعاوي والاحكام

عقوبات متنوعة تبعاً للجرائم والقبائح . ولا باس بايراد شيء منها يدل على الباقي قال (ف ٢٢ : ١ـ ٦ و ٩) . « اذا سرق احد ثوراً او شاة فذبحه او باعه فليعوّض بدل الثور خمسة وبدل الشاة اربعاً . وان وجد السارق وهو ينقب فضرب وقتل فدمه هدرٌ . فإن وجد وقد شرقت الشمس فلا يُهدر دمه وانما يعوّض. وان لم يكن له فليبع في سرقته . وان وجدت السرقة في يده حية من ثور او حمار او شاة فليعوّض بدل الواحد اثنين . اذا رعى احد حقلاً او كرماً فاطلق بهيمته ورعت في حقل غيره فمن اجود حقله او كرمه يعوّض . وان خرجت نار ولاقت شوكاً واحرقت اكداساً او سنبلاً قائماً او سائر ما في الحقول فالذي اوقد النار يعوّض ... كل دعوى جناية في ثور او حمار او شاة او ثوب او كل ضالة يقال فيها الامرُ كذا فالى الالهة تُرفع الدعوى ومن تحكم الالهة عليه يعوّض صاحبه مثلين » (المراد بالالهة هنا القضاة الذين يمثلون الله تعالى عند الشعب وعند المترافعين خصوصاً) ثم يقول (٢ : ١٤ و١٥ و٢٢ ـ ٢٤) « ان استعار احد من صاحبه شيئاً فانكسر او مات وليس ربّه معه يعوّض . وان كان ربه معه فلا يعوّض . وان كان مستأجراً فقد مضى باجرته ... ولا تُسئ الى ارملة ولا يتيم فان اسأت اليهما وصرخا اليَّ فاني اسمع صراخهما فيشتدّ غضبي واقتلكم بالسيف فتصير نساؤكم ارامل وبنوكم يتامى »

٥ً القتل

كل التعديات والجرائم التي تقع عند العرب في البادية ترفع دعواها الى القاضي او الى القصّاص على نحو ما رأيت : الا القتل فانه يثير من الغضب وثار الحقد والاندفاع الى الثأر والانتقام ما لا يكاد يقدر احد على كبحه . وانّ اخذَ الثأر عند العرب شريعة مقدسة تقع بشدة على القريب الادنى من القتيل . وعار عليه ولا عار بعده ان اهمل هذا الواجب الكبير وترك دم قريبه مهدوراً على الارض دون انتقام فان الدم كما تقول العرب يصرخ من الارض ويستغيث طالباً الثأر[1]

فعلى الأب ان يثأر لابنه والابن لابيه والاخ لاخيه او الاقرب لقريبه . ولن يهدأ لهم بال ولا يطيب لهم عيش حتى يوفوا هذا الواجب وان ادركت الوفاة احدهم قبل ان يتممه يوصي به الى خلفه ولا يموت راضياً حتى يقسم له هذا انه يقوم به . واذا كان القاتل من قبيلة غريبة فتقوم القبيلة كلها قومة واحدة للاخذ بالثأر وفي مقدمتها قرباء القتيل[2] . وكثيراً ما تكون هذه الجناية سبب حرب هائلة ما بين قبيلتين

---

(١) نظير دم هابيل الذي قتله اخوه قايين (تكوين ف ٤)

(٢) طالع قصة صبرا الحداد التي نشرناها في الجزء السابق صفحة ٣٥٢

كبيرتين وتمتد نيرانها الى قبائل متعددة فتصبح البادية شعلة نار وساحة[1] قتال هائلة . فالدم يفعل منظره في ساكن البادية فعلَ اللون الاحمر على بعض الثيران في اسبانيا يهيجها هيجاناً لا تسكن معه حتى تفتك بصاحبه او تصرَع على الارض خابطة بدمها ... واليك ماذا يحدث عند وقع القتل عند العرب

عندما يبلغ الخبر الى اهل القتيل يقومون للحين الى محل الجريمة ان كان على مقربة منهم ليدفنوا قتيلهم بالاكرام اللائق به . ثم يلحقون بالقاتل اياً كان ليعدموه الحياة في الحال على اثر الجناية . فان وجدوه فتكوا به لا محالة ولا احد يسألهم عن شيء[2] ثم يبادرون الى خيمته فيحرقونها بما فيها من غالٍ او رخيص ويعقرون ابله[3] ويذبحون غنمه وبقره ويبقرون فرسه ويأخذون سلاحه وقد يقتلون الذكور من اقربائه الى الدرجة الخامسة ولاسيما اذا لم ينالوا المجرم اما الاناث فيدعونهن يهربن . هي فورة الدم كما يقولون تدوم عندهم ثلاثة ايام يجوز فيها لصاحب الثأر ان يفعل بعدوه ما يشاء تشفياً منه . واذا كان

---

(١) نظير حرب البسوس الشهيرة التي دامت اربعين سنة بين قبيلتي بكر وتغلب وشغلت بادية الشرق الشمالي كلها

(٢) كذلك في العهــد القديم راجع سفر الخروج ف ٢١ : ١٢ لاسيا اذا كان القاتل قد فتك بابيه او امه عدد ١٥

(٣) اي يحصدون قوائمها بالسيف

غريمه من قبيلة غريبة فكل اهل عشيرته يساعدونه على اخذ الثأر فان قتل واحد من ذوي قرابة القاتل فقد بلّ صاحب الثار غليله من الانتقام وارتدّ الى بيته مثلوج الصدر والا فلا يزال يتتبع غريمه حتى يناله

اما القاتل فيبادر بعد ارتكاب الجريمة الى الهرب من وجه اصحاب الثار . فيلجأ الى قبيلة غير قبيلتهم وغير متحالفة معها وكذلك يفعل اقاربه الادنون الى الوجه الخامس على ان هذا يمكنه ان يفتدي نفسه بمال او جمال ان رضي بذلك اهل القتيل اما الذين هم ابعد نسباً الى المجرم فعليهم ان يقدموا جملاً لاهل الثار يسمى « جمل النوم » يقدمونه لهم بوجه احد كبار العشيرة وينامون مرتاحين ولذا يسمى جمل النوم

بعد ذلك تتوالى الايام والشهور واهل القتيل يراقبون الفرص لاخذ ثارهم من عدوهم وكثيراً ما يكمنون له في الطرق او يهجمون ليلاً على محل مخبإه حتى يفتكوا به خارج ملجإه لانهم لا يمكنهم الايقاع به في بيت حاميه دون ان يصبح هذا عدوهم لانهم خفروا بحماه فيثأر منهم اي ثار

على ان الايام لابد لها من ان تهمد غضبهم وتهدّئ جأشهم فعند ذلك يبادر القاتل الى السعي في طلب الصلح معهم . فيرسل اليهم من يتوسط به ولا شك انه خائب مردود في المرة

الاولى فانَّ رُدن القتيل[١] الذي قطعه اخوه او ابوه من قميصه وغمسه في عبيط دمه لم يزل معلقاً نصب اعينهم على عصاة طويلة عند باب الخيمة . بيد ان المذنب لا يقطع الامل فانه بعد مدة وجيزة يلتمس توسّط بعض ذوي الوجاهة من القبائل المجاورة فيعينون يوماً يجتمعون فيه عند بعض كبار المشايخ « ويكدّون » كما يقولون وجاهةً على اهل القتيل ليصلحوهم مع خصمهم . فعندما يكمل جمعهم ويجلسون هناك على شكل نصف دائرة في صدرها الشيخ الكبير واهل القتيل يأتي المجرم او وكيله مكشوف الرأس وعقاله حول رقبته ويجثو على ركبتيهِ امام الجماعة صامتاً ذليلاً . فتقدَّم حينئذٍ القهوة فان كان الاجتماع في بيت اهل القتيل يرفضونها موْجلينها الى نيل طلبهم اعني المصالحة . فيفتتح الشيخ الكبير الكلام بحديث عام عن مصائب الدهر ونكبات الزمان وخبث الشيطان الذي يحمل الانسان على ما لا تحمد عقباه وضرورة الاحتمال وشرف المصافحة الخ . حينئذٍ يقومُ المذنب من مكانهِ ويدنو متذللاً من صاحب الثأر وهو الاقرب الى القتيل ويطلب الصفح. اما هذا فيأخذ بعذبتي عقاله ويقبض على عنقهِ ثم يهز رأسه قائلاً لهُ ابن اخي (او ابي اذا كان المقتول اخاه او اباه) هل هو في خيمتهِ ؟ ـ فيجيبهُ القاتل : نعم هو هناك . ويُراجع

(١) اي مقدم الكم من قميصه

السؤال ثلاثاً، والجواب مثله . ثم يقول له صاحب الدم : هل انت مستعد لان تدفع كل ما يُطلب منك ؟ فيجيب : نعم اني مستعد . حينئذٍ يأخذ صاحب الثار ويسرد مبالغاً ومشدداً ما يريده ديةً عن دم قريبه . فيطلب بنتين او اكثر من قرابة القاتل ليأخذها لنفسه او يزوجها من اصحابه ويأخذ مهرهما ثم كذا من الجمال وكذا من الثياب وكذا من السلاح وكذا من الارض وكذا من الغلال وكذا من النقود الخ[1] . . .

وعند كل واحد من هذه المطاليب يجيب المجرم خاضعاً صاغراً : نعم . نعم كما تريد . فحين ينتهي من سرد مطاليبه يجيبه كبير الجماعة : ان ما طلبته لهو قليل في جنب قيمة القتيل ولك ان تطلب اكثر من ذلك . ولكن الا تترك شيئاً لوجه الله ولرسوله . فلا يسع صاحب الدعوى الا ان ينقص شيئاً مما طلبه فيرجع الشيخ ويدعوه الى حسم شيء آخر لوجه فلان من الحاضرين : ثم لكرامة فلان . ثم لكرامة الشيخ نفسه . ثم لكرامة الجماعة كلها . الى ان يرى ان المطاليب قد انحصرت في حدود محتملة وفي وسع الغريم ان يقدمها . على ان صاحب الدعوى له ان يصرّ متمسكاً بكل مطاليبه، بيد انه عادة لا يسعه الا ان يكرم من دخلوا عليه وسطاء من اهل الوجاهة لما يقدره من الاحتياج اليهم يوماً في مستقبل الايام . فاذ يتمّ

(١) طالع المسرة ٨ : ٨٢ : المصالحة على الدم عند عرب البلقاء

الاتفاق بين الفريقين ويُعين الكفلاء عليهما على ان الواحد يدفع كل ما فرض عليه والثاني لا يعود يتعرض له بأذى والا فتدور عليه الدوائر ويصبح هو المذنب تُعقد الراية البيضاء حينئذٍ في راس سارية وكل من الحاضرين يعقد فيها عقدة ثم ترفع نساء المذنب اصواتهن بالاهازيج (الزلاغيط) تبشيراً بعقد الصلح ورجوع السلام . حينئذٍ يقوم المذنب او النائب عنه ويجلس مع الجماعة واضعاً عقاله على راسه وتدور فناجين القهوة . ثم تذبح الذبيحة . وبعد ان يتناولوا الطعام يرجع كل الى بيته . وان عجز القاتل عن اداء الدية يعقد راية بيضاء ويطوف بها في احياء العرب طالباً المساعدة لجمع ما هو مطلوب منه . وهذه تدعى راية الدية ويغرسها عند باب الخيمة ليعلم بنيَّته من يراها

وعند بعض العشائر وعامة اهل الحضر دية الدم محددة معروفة فهي عند الدروز عادة عشرة آلاف غرش . وعند المسلمين والنصارى لا تتجاوز الثلاثين الفاً من الغروش على انها تدفع كلها نقداً او ثلثها نقداً وثلثها ماشية والثلث الاخر غلالاً . اما دفعة واحدة واما تقسيطاً . اما دية الاناث من نساء او بنات فهي ضعف دية الرجال او اربع دفعات اكثر منها . واذا كانت المرأة المقتولة حاملًا فيطلب ديتها ودية الولدُ الذي مات في احشائها . كذلك عند التطريح تدفع

دية الجنين[1]

اما المسيحيون الذين يجرون على عوائد من يجاورهم من العرب ويطلبون دية الدم على النوع المذكور قبلاً فانهم بدل البنات يتقاضون مهرهنّ . وهم بالاجمال اقل تطلباً من بقية العرب ولا يندر عندهم ان يصفحوا عن القاتل ولا يطلبوا منه شيئاً البتة مدفوعين بعامل الدين وجرياً على شريعة السيد المسيح الذي قال : احبوا اعداءكم واحسنوا الى مبغضيكم لتكونوا بني ابيكم السماوي الذي يشرق شمسه على الاشرار والصالحين ويمطر على الاشرار والاخيار

وقد يجري مثل هذا الكرم في الاخلاق من قبل العرب غير المسيحيين انفسهم . فقد جاء عن احد سكان مدينة الكرك درويش الجعافرة انه قُتل اخوه غيلة فهب ليثأر له . فعرف ان القاتل في بعض احياء العرب فقصده وترصده هناك الى ان وقف على جميع حركاته وسكناته . فرجع واخبر اخويه وذهب بهما للفتك بعدوه . فكمنوا له على العين حتى اذ جاء المساء اقبل يقود فرسه ليوردها الماء ولم يكن معه احد . فانقضّ عليهِ درويش وجندله الى الارض وداس بركبته على صدره واشهر عليهِ خنجره وقال له بشدة الحنق : « ابن اخي » فاجابه ذلك متذللاً : « هو عندي » واعيد السؤال والجواب ثلاثاً

---

(١) طالع ما كان يجري قديماً عند اليهود في سفر الخروج ف ٢١ : ٢٢

ثم قال لهُ درويش : « والان ماذا اعمل بك » اجابهُ ذاك : « اعمل ما تريد » . فهتف درويش وقال محتدماً : « ماذا افعل بك » اجاب الجاني نادماً : « افعل ما تريد » . ففكر درويش في نفسهِ هنيهة ثم قال : « ماذا ينفعني قتلك هل يرجع اليَّ اخي » . فقام عنهُ وقال : اذهب الى بيتك فقد صفحت عنك . فما كان من هذا الا انهُ اسرع الى بيتهِ وجاء الى درويش بكل ما عنده متشكراً وقال اطلب ايضاً ما تشاء

واذا وقع القتل غلطاً عن غير قصد فالعرب تتقاضى الدية بكاملها بدون وهق على القاتل ولا ثأر منهُ

وان خفي القاتل ولم يُعرف فلا بد لاهل القتيل او لعشيرته من توجيه التهمة الى احد الاعداء المعروفين منهم او الى اهل عشيرة بجملتها فيطلبون منهم الدية او يقتلون واحداً منهم . على كل حال لا يمكن ان يُهدر دم عربي في البادية دون ان تقوم القيامة للانتقام والتعويض . وقد تمر السنون والاجيال ولا يُنسى الدم بل انهُ لا يفتأ يصرخ في ذويهِ : الثأرَ الثأر . اما الشرير من الاعراب صاحب الاخلاق الشرسة والتعديات المتواصلة الذي يعجز قومه عن اصلاحهِ وردعهِ فهذا يفصل بل يُطرد من القبيلة ويعلن قومه انهم غير مطالبين بما يأتيه من التعدي . فهذا اذا قُتل يُهدر دمه جزافاً . وما سواه فلا . فان العربي معروف بالحقد وحفظ الضغينة وحب الانتقام على مثال

الجمل الذي يركبهُ . فقد قيل في امثال العرب « احقد من جمل »

وقد يخرج الاعرابي من قبيلتهِ وعشيرتهِ وعترتـهِ ويعلن امام الملإ ولاسيما امام اعدائه الذين يريد ان ينتقم منهم تجرده عن قومهِ وانهم غير مسؤولين عن عملهِ حتى يُطلق يده للثأر دون خوف على ذويهِ من تبعة عملهِ . وقد يفعل ذلك اذا لم يجارِه قومه على قصده في الثأر

فمن تأمل في عوائد العرب هذه في اخذ الثأر يرى مـا فيها من الهمجية والقساوة . بيد انهـا لا مشاحة هي رادع كبير لجموح العرب وشراسة اخلاقهم فانهم لولاها لافترس بعضهم بعضاً وقطعوا السابلة على كل مسافر لما يدفعهم كثيراً من عوامل الجوع او الطمع او الحقد على الفتك بعدوّهم وصاحبهم

ولو كانت الحكومات في البلاد المتمدنة اشد حزماً على اهل الخيانات الكبيرة لقلّ عديدها وأَمن العبـاد من شر الاشرار الذين لا يصطلحون الا بالقساوة والصرامة

الفصل الثامن

في الحماية

الحماية

اخلاق العربي في منتهى النزق والحدة وهو شديد الانفة

لا يقيم على الضيم ولا يحتمل الجور فان وقع عليه عداء يهب في الحال للثار والاخذ من عدوه ولو كان اقوى منه ويقابله بالضرب والنهب والشتيمة والقتل غير حاسب لشيء حساباً ولو كانت عليه تدور الدوائر ويصير الى الخراب والاضمحلال . فلما كان الحال على هـذه الصفة والبدوي ميّال طبعاً الى النهب والسلب والتعدي والضرب، نجم عن ذلك حال شديدة لا يثبت فيها الضعيف ولا يتاتى له حفظ كيانه بجانب القوي القهار المتعدي الجبار

على ان العرب قد ز كنوا اخطار هـذه الحال فوضعوا لها دواء فعالاً في شريعة الحماية بوجه الاطلاق وهي ان يلتجئ الضعيف الى القوي فيحميه من سطوة من يبتغي التعدي عليه . وان نخوة الشرف والمروءة عند العربي بالغة اقصى حدودهـا فهي تحمل صاحبها ان يقوم بواجب الحمايـة بازاء من التجأ اليه ولو اضطره الامر ان يضحي بماله وعياله بل بحياتها كلها فانهُ ليخرج عن ذلك كله في سبيل محميّه ولا يقال انه خانـه او تركه يُعتدى عليه

ويدخل الضعيف في هذه الحماية القوية بابواب متنوعة منها الوصاية والخوّة (اخوة) والوجه والدخلة والملحة والطنب والقصارة الخ واليك كلمة عن كل واحدة منها

١ الوصاية

الوصاية عندهم نوعان وصاية الميت ووصاية الحي فبالاولى يكل المدنف امر اسرته واولاده القاصرين الى احد وجهاء العشيرة ويطلب اليه ان ياخذهم تحت حمايته ويزود عنهم عند الحاجة ويمنع عنهم كل ضيم ويعولهم عند الضرورة. فهذه الوصية مرعية جداً عند العرب ولا يسع احداً ان يرفضها مهما لحقه من ورائها من المتاعب والثقل وقد تتم بحضور الموصَى او بغيابه فان الموصي يستدعي شاهدين ويقيمهم على وصيته ليبلغاها الى الموصى وهذا لا يدعه شرفه ومروءته الا ان يقبلها ويعمل بها بارادة الموصي فيقضي هذا اجلهُ آمناً على اسرته واولاده مرتاح البال لما يعلم من مراعاة وصية الميت عند العرب

وقد تقوم الوصية دون وفاة صاحبها فان رأى احدهم حال عترته من الفقر والضعف وعجزه عن القيام باودها والذود عنها فانهُ يعهد بها وهو حي الى احد المقتدرين من العشيرة ويضع نفسه وعيلته تحت حمايته . وفي وسع هذا ان يقبل بالوصاية او يرفضها على ان قبولها اقرب الى شرف العرب ومروءتهم

ولا شك ان هذا النوع الثاني من الوصاية لا يقوم دون تقدمة او هدايا او خدم من قبل صاحب هذه الاسرة الموصى بها

٢ً الخُوَّة

هي الاخوة العربية وهي نوع من الاخاء او القرابة المعنوية. فانها تقوم بالانضمام الى حماية قبيلة قوية من العرب مجاورة تؤدي لها القرية او العشيرة التي تستمد هذه الحماية مبلغاً معلوماً من المال او من المواشي او غلالاً وما شاكل وتلك تتعهد بالذود عنها وتامينها من تعديات عربان قبيلتها الذين لولا هذه الخوة او المعاهدة لتواصلت تعدياتهم وجورهم عليها . فمرجع ذلك اذن الى كف الاذى والظلم والعسف مقابل جزية معلومة تدفع قسرًا وتسمى هذه المعاهدة الاجارية « اخوة » على سبيل تسمية الاشياء باضدادها او اذا اردت فهي اخوة او اخاء مشترى غصباً بالمال على انه يجعل بين الطرفين اعني الذي يدفع الخوة والذي يقبلها نوعاً من الوصال والاتحاد مما يشبه وصال الاخاء او القرابة وهذه الخوة معروفة عند الامم المتمدنة ويسمونها حماية (Protectorat)

ويقسم صاحب الخوة ان لا يخون بمن طلب حمايته على هذه الصورة « انا معطيك عهدًا بالله وبمحمد رسول الله وبالنبي خليل الله وسبع جمال محملة غلة وكل حبة منها تقول والله اني ما اخونك ولا آمر من يخونك »

وتبقى هذه الخوة مرعية من قبل الطرفين بالجزية من جهة والحماية من الجهة الاخرى حتى يأنس الطرف الاول من نفسه

قوةً لان يحمي نفسه بنفسه ويرد عنه ضيم عدوه فينزع عنه هذا العبء ويقف عن اداء حق الخوة. على ان صاحبها لا يتخلى عنها حتى يعجز عن تقاضيها

٣ الدخلة

هي الدخول الى خيمة او بيت احد المشايخ او الاقوياء بقصد طلب الحماية واستمداد الاسعاف لدى هجوم عدو او حلول نائبة . عند ذلك يقبله صاحب الخيمة ويمده بكل ما في وسعه لينجده ولو كان غائباً عن الخيمة. فكلٌّ يعرف ان من يتعدى عليه كانه قد تعدى على صاحب الخيمة نفسه ويقع تحت غضبه وانتقامه . اجل ان الخيمة عند اهل البادية شيء مقدس وحمى مكرم والويل لمن ينتهك حرمته فانه يسوّد وجه صاحبها ويذل كرامته ويدوس شرفه فيثأر لذلك اي ثأر وانتقامه لا يعرف حداً . فحماية الخيمة اذن اكبر حماية عند العرب ودخيلها قد اصبح آمن الجانب محفوظ العهد محمي الذات والمال بسطوة صاحب الخيمة وبأسه . ولنا في لغتنا العربية اثر من هذه العادة القديمة في قولنا « انا دخيلك » اي داخل على بيتك طالب حمايتك

ولا يسمح البدوي ان يهان احد في خيمته ولو لم يدخلها

بقصد الحماية¹ فانه ان تخاصم فيها ضيفان واهان احدهما الاخر بشتم او ضرب او غير ذلك فعلى صاحب الخيمة ان ينتقم لنفسه ولضيفه المهان اما برفع الدعوى الى الشيخ أو احد الفقهاء او ان يبادر المذنب فيمسح الاهانة من تلقاء نفسه ويتم ذلك باداء تعويض كبير من المال لصاحب الخيمة على قدر ما يطلب ومثله لخصمه الذي شتمه او ضربهُ او جرحه . حتى يرضى به وينادي على رؤوس الملا وفي الجماعات المحتشدة او على مفارق الطرق ان فلاناً (صاحب الخيمة الذي اهين فيها) عزيز الجانب كريم النفس شديد البأس رفيع العماد فيبيّض على هذه الصورة وجهه ويشرف مسكنه

٤ً الملحة

وما هي الا فرع من الدخلة بها يطلب الواحد منهم حماية قدير او شيخ بسبب الزاد او الطعام الذي اكله من عنده لدى ضيافته فاذا عارضه عدو او تصدى لهُ سالب في طريقه بعد ذهابه من خيمة ذلك الشيخ الكبير او الفارس المشهور فيقول لهُ محتمياً به اني على ملحة فلان ويسميه فان لم يرتدّ عنه المعتدي وغصبه

---

(١) كذلك كانت العادة عند اليهود قديماً . طالع سفر التكوين ف ١٩ فان لوطاً اذ دخل عليه الملاكان واراد اهل سدوم بهما شرّاً خرج اليهم قائلاً « لا تفعلوا بهما شيئاً لانهما دخلا تحت ظل سقفي »

على ماله او شخصه فيرجع الى الذي كان ضيفاً عنده ويقول لهُ لقد اهانك فلان وسلبني مالي وانا على ملحتك. فلا يسع هذا العربي الذي اكل من طعامه واحتمى به الا ان يسعى في ردّ ما اخذ منه والانتقام لشرفه ممن زرى بهِ ولم يعتدّ بملحته

ولقد يختطف الرجل كسرة خبز من خبز هذا الشيخ القوي فيأكلها او يجرع جرعة من الماء الراشح من كيس لبنه حتى يقول لمن يعترضهُ انهُ على ملحة فلان فيرتد عنهُ هائباً

٥ الوجه

قبل ان يبرح البدوي خيمته قاصداً سفراً محفوفاً بخطر فانهُ يستشهد على كلامه اثنين من آل عشيرته او من الموجودين بحضرته ويقول « انا بوجه فلان » (احد المشايخ او المقتدرين العظام) او « انا ماربوجه فلان » يعني انهُ يسير بحمايته وكأني به قائم امام وجهه وبرعايته حتى اذا تعدّى عليهِ احد في طريقه بعد ان عرف انهُ مار او سائر بوجه ذلك الشيخ الكبير والفارس القدير يقوم هذا وينتقم لهُ ويرد لهُ ما سُلب منهُ . ولقد يضع ايضاً مدة غيبوبته زرعه ومواشيه وعياله تحت حماية هذا الرجل القدير بمجرد قوله : زرعي وعيالي بوجهه

كان احد المسيحيين وهو من خبب مسافراً في البادية فخرج عليه قوم يريدون سلبه ولم يكن على وجه احد وضاق

ذرعه عن المدافعة . حينئذٍ هتف باعدائهِ قائلًا : اين الصلاخدة ! (وهم عشيرة من المسيحيين الكاثوليك اصلهم من صلخد وقد نزحوا الى خبب وبصير وغيرها) فكان بين هؤلاء اللصوص بعض منهم فقاموا على رفقتهم وحاموا عن نسيبهم فسار في طريقهِ سالماً

٦ً الطُّنُب

الطنب حبل من حبال الخيمة وهو قد يكون واسطة لطلب الحماية بان يهرع الضعيف او المهجوم عليهِ فيعلق بهِ ويمسكهُ او يرمي بعباءتهِ عليهِ فكانه قد امسكهُ . فعمله هذا يسمى عند العرب طنباً من باب تسمية الشيء بجزءِ منه . فان تعدى عليهِ احد والحالة هذه يحسب كانهُ قد تعدى على صاحب الخيمة نفسها فيقوم عليهِ بالانتقام والاخذ منهُ لمن التجأ اليهِ بهذه الصورة وهو كما ترى نوعاً من الدخلة التي مر وصفها

وقد يكون المهجوم عليهِ الهارب من وجه عدوه فازعاً الى الخيمة فيوقع بهِ عدوه قبل الوصول اليها ويقتلهُ او يجرحهُ جرحاً . فماذا يكون الحكم والحالة هذه . هل يحسب هذا الاعتداء اهانة بصاحب الخيمة التي كان مهرعاً اليها ؟ اجل انهُ يعد كذلك اذا كان بيّناً انهُ كان ملتجئاً اليها و كأنهُ بهِ قد قال بفزعهِ الى الخيمة « انا بوجه صاحبها » . وان وقع التعدي او القتل بالقرب

من خيمة الشيخ الوجيه او الفارس المهيب دون ان يكون القتيل ملتجئاً اليها فخطتهم في هذه الحال ان يتناول من هو قوي الساعد عصاةً ذات رأس ضخم تدعى قناة ويرمي بها بعيداً وهو واقف عند باب الخيمة ثم يعدُّون الخطوات ما بين الخيمة وموقع العصاة وبين موقعها وموقع الجريمة فان كان موقع الجريمة اقرب الى موقع العصاة من الخيمة اليهِ يحسب التعدي والحالة هذه اهانة كبيرة على صاحب الخيمة فيقوم على صاحبهِ ثائراً منتقماً لمن ظلم في حوزتهِ

واذا ضرب احدهم خيمته بالقرب من خيمة الشيخ او الوجيه فيكون جاره ومن ثم تحت حمايتهِ ورعايتهِ

٧ً القصير

هو الذي يهجر قومهُ لضعفهِ او ضعفهم عن حمايتهِ او هرباً من اقتصاص استحقهُ بذنب او تعدٍّ على اهل عشيرتهِ فيلتجئ الى عشيرة قوية ويضرب خيمتهُ في وسط خيمها فيصبح كأنهُ منها بل كأنهُ دخيلها كلها فتحامي عنهُ اينما ذهب وهو يتفانى ايضاً في الذود عن حقوقها حتى ضد قومهِ وعشيرتهِ الاصلية . فيصبح كانه منها، له ما لها وعليه ما عليها

انهُ لفي وسعنا ان نتوسع في شرح هذه العوائد الراجعة كلها الى الحماية ونعلق عليها الروايات الواقعة التي تزيدها بياناً

وايضاحاً . بيد اننا نؤثر الايجاز وانما غايتنا ذكر هذه العادات دون الاطناب لغاية نتوخاها وهي ايضاح معاني الكتاب المقدس ببيان عوائد العرب التي تشبه عوائد اليهود قديماً في عموم احوالها فنكتفي بما يبلغنا غايتنا . ونعرض عن الاسهاب الذي لا فائدة منه

٨ْ الامانة والوفاء

الاعرابي لا يعرف قيداً لاعماله ولا شريعة لمسلكه غير الغريزة الطبيعية والعوائد الجارية في البادية بيد انهُ يراعي هذه القيود ويحترمها ويعادي من يتعداها ولهُ في الامانة والوفاء صفات قلما نجدها في اولاد المدينة نذكر شيئاً منها هنا على سبيل الرواية ليعلم القارئ باخلاق البدوي هذا الذي يحسبه البعض منا متوسطاً ما بين الانسان العاقل والحيوان

جاء عن اعرابي انهُ تناول يوماً من امرأة عجوز ابرة ليخيط بها ثوبه فلبثت معه سهواً وسافر الى بعض غزواته فلقي رجلاً قد انغرزت في رجله شوكة فاحتاج الى ابرة لكي يخرجها فلم يشأ ان يعطيه ابرة العجوز الا بيعاً بعجل وبعد ذلك ابدل العجل بجمل فتي فكبر الحُوار حتى صار جملاً فلما لقي العجوز بعد خمس سنوات رد لها هذا الجمل وما كسب به

اما وفاؤهم بعهود الدخلة او الحماية فحدث عنها ولا حرج فقد

مر بك ذكر ذلك في باب الحماية واليك رواية من هذا القبيل

كان على احد العربان عداوة دم بازاء حمولة النبور في مدينة السلط (وهم مسيحيون كاثوليكيون) لانه قد رمى عضواً منها فاضطر ان يدخل هذه المدينة لغرض له فدخلها واختبأ فيها فعرفه احد السلطية فسلم عليه قائلاً قوك (اي قواك الله) يا زريق وكان هذا اسمه فاجابه البدوي انك واهم لست انا به - فاجابه السلطي ان كنت تنكر فسوف ترى ما يحل بك فلما رأى انه قد كشف امره خاف على نفسه من الانتقام فاهرع الى الذي عرفهُ وقال له انا في حمايتك فاخذه الى بيته قائلاً : هذه حسنة عندك ثم طاف به البلد لقضاء غرضه . وبعد ذلك حدث ان وقع هذا السلطي في ايدي عرب زريق فنهبوه واذ وقع منهُ ما اوغر غضبهم ارادوا قتلهُ فنظر واذا بزريق بينهم فاستنجده فاسرع الى نجدتهِ ووقع من جراء ذلك خصام شديد بين قومه واهل بيته الذين اشدوا في تخليصه حتى ادَّى بهم النزاع الى قتل بعضهم . بيد ان زريق خلص صاحبه وذهب بهِ الى الكرك فسلمهُ الى العزيزات هناك وهم من اقارب السلطي فارادوا ان يخلعوا عليهِ خلعة مكافأة لعملهِ فلم يشأ بل قال ما هذه الصنعة الا واحدة من ثلاث بقي علي اثنتين وفاء لما عمل بي هذا السلطي

فهرس